الكتاب الماسى

من وحي السد العالي

ثورة أمة وقلب أم

بقلم: سهيلة زكية الريماوي

الكتاب
الماسي

من وحي
السيد العالي

ثورة أمة
وقلب أم

بقلم
سهيلة زكية الريماوي

« لقد مضي الى غير رجعة ، ذلك الزمن الذى كان فيه مصير الأمة العربية وشعوبها وافرادها يتقرر فى العواصم الأجنبية ، وعلى موائد المؤتمرات الدولية ، او فى قصور الرجعية المتحالفة مع الاستعمار » .

« ان الانسان العربى قد استعاد حقه فى صنع حياته بالثورة »

« ان الانسان العربى سوف يقرر بنفسه مصير امته على الحقول الخصبة ، وفى المصانع الضخمة ، ومن فوق السدود العالية ، وبالطاقات الهائلة المتفجرة بالقوى المحركة » .

مطلع الباب السابع

من ميثاق الجمهورية العربية المتحدة

الفصل الأول

نداء السد

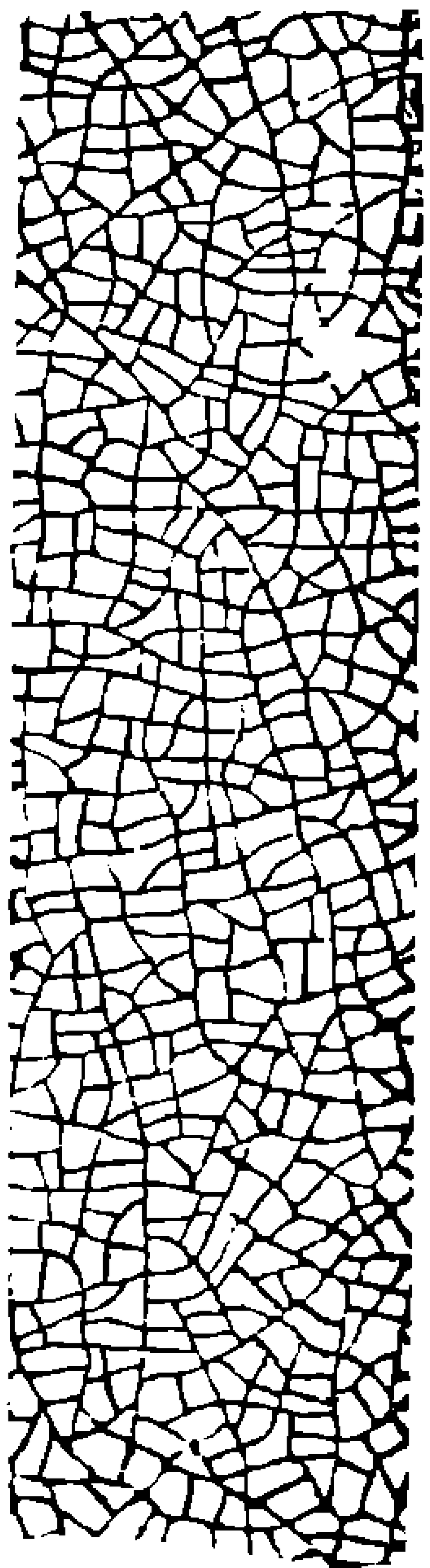

« نداء السـد »

ليس هذا الكتاب وصفا فنيا ، او تحليلا احصائيا يعرف القـارىء العربى بالسد العالى ، فى جوانبه وأبعاده وحقائقه : الفنية الرائعة ، والاحصائية الجبارة .. وان كان واجب كل عربى ، ان يتعرف الى السد العالى فى تلك الجوانب والأبعاد ، وهذه الحقائق والاحصـائيات .. الجبارة والرائعة .

بل ان صدور هذا الكتاب ، فى جوهره ومضمونه ، انما هو تعبير عن مشاعر وافكار ، وأحاسيس وانفعالات قومية ، أثارتها فى النفس والوجدان تجربة السير الحالم مع النيل الخالد ، استجابة لنداء السـد العالى ، قد بعثتها فى العقل والكيان وقفة الاعتزاز القومى الواعى ، والتطلع الاشتراكى الثورى .. مع البناة وأمام البناء .

مع البناة : انهم نموذج الانسان العربى الجديد الذى اسـتعاد بالثورة حقه فى صنع حياته ، واصبح بالعمل الذى يفتت الصـخر ، يقرر مصير أمته .

وأمام البناء : الذى يقوم بالعزة والكرامة ، شامخا فوق مجارى الأنهار وفى طليعتها النيل الخالد ، ليروى الحقول الخصـبة ، ويدير آلات المصانع الضخمة ، بالطاقات الهائلة المتفجرة بالقوى المحركة ..

ليكون من هذا كله — **من البناة والبناء ، من الانسان والعدل والانتاج** — تأكيد ايجابى حاسم لارادة النصر فى **معركة الانتاج** التى هى تحد حقيقي يثبت فيه الانسان العربى مكانه الذى يستحقه تحت الشمس .

وهذا الكتاب بعد ذلك تعبير عن انطباعات وانفعالات ، وتصوير لمشاعر وأحاسيس وتسجيل لآمال وافكار ، تثيرها فى **وجدان أم عربية ،**

الرحلة عبر الصعيد ، على ضفاف النيل ، فى لحظات مراقبة «الميلاد الجديد» الذى يتجسم فى معانيه وابعاده المادية واللامادية بقيام السد العالى ، تعبيرا عن **حب الحياة ، واحترام الأحياء :**

وتمكينا للحياة أن تنطلق **بالحب نبتا طيبا** ، من أعماق الخصب الذى يزيده السد اتساعا وعمقا .

وتمكينا للأحياء كى يجدوا .. **بالاحترام** مع اتساع الخصب وعمقه ، ومع النور الذى يرافق الوفرة بالكفاية ، ويواكب الحرية بالعدل ، أسباب الحياة الكريمة حيث تتبدد غيوم الظلم والظلام التى أحاطت بهذه الحياة اجيالا طويلة متعاقبة .

انها الانطباعات والانفعالات ، والمشاعر والاحاسيس ، والآمال والأفكار ، التى تثيرها الرحلة على ضفاف النيل الخالد ، وتفجرها الوقفة الخالدة أمام لحظات الميلاد الرائع ، وكل لحظة بلا مبالغة تشهد تكامل المولود ، واقتراب الميلاد ، **فى نفس الأم العربية** ، فتحلق على أجنحة الخيال العذب ، لترى **الأجيال العربية** القادمة ... أجيال المجتمع الاشتراكى العربى الديموقراطى الجديد ، وترى بالامل وبالخيال ، ومع شعار « يابناة السد العالى » .. ترى بناء حياة وحضارة قومية انسانية جديدة ، تستأنف بها الامة العربية رسالة الاسهام المادى والعقلى والروحى فى الحضارة الانسانية .

وهل يستغرب أن تحاول الام العربية : سليلة اجيال الكفاح والنضال والامل .. أن تحاول التحليق بخيالها ، لتعيش بالامل والخيال مع الاجيال العربية الجديدة فى المستقبل العربى المشرق ؟ كلا .. ان هذه طبيعة الام .

ثم ان هذا الكتاب تعبير عن انطباعات وانفعالات ، ومشاعر وأفكار انسانية يثيرها المسير مع النيل الخالد ، والوقوف بخشوع واكبار أمام العمل الجبار ، فى وقعه على النفس والضمير لكل نفس انسانية ، وكل ضمير حى ، يتفتح اليوم على الحياة بالخصب والنور ، لا فى الوطن العربى فحسب ، وانما فى القارتين الكبيرتين ، اللتين تتعانق شعوبهما فى وحدة نضال تاريخى أصيل من أجل التحرر والتقدم بالعدل والكفاية ، لتصنع هذه الشعوب بالتراث الحضارى التليد والتفتح الانسانى الجديد ، ومن خلال المعاناة والنضال ، التجربة **الثورية** القومية الانسانية الجديدة ،

وترسم بذلك صورة المستقبل الانسانى ، فى اطار قومى اشتراكى ديموقراطى جديد ..

ان الاستجابة **لنداء السد العالى** ، لا تحتاج الى تفسير وتعليل ، فمنذ أن أراد **الرئيس عبد الناصر** فى ٩ من يناير ١٩٦٠ اطلاق الانفجار الاول فى جبل الجرانيت الاصم معلنا ((**بالعمل**)) مباشرة اقامة السد العالى ، وكان نداؤه قويا مغريا ، تتردد أصداؤه بالنصر المذهل فى جميع أنحاء العالم ، وبشكل متميز وخاص فى أرجاء الوطن العربى كله .. فكان نداء يدعو الذين يحدوهم الامل ، وتهزهم الفرحة ، كما يدعو الذين يمزق صدورهم الحقد وتأكل أحشاءهم الكراهية ، أن تعالوا .. الى .

واذا كانت قصة الكفاح الطويل المرير ، المؤمن الصامد التى بلغت فى يوم التفجير الاول احدى ذرواتها ، قصة تكون عبر التاريخ ، وعلى مدى الاجيال ، لحن بطولة من الحان النضال العربى الثورى ، بل هى المقدمة النابضة بالعزيمة والاستشهاد ((**سيمفونية نداء السد العالى**)) ، واذا كان النداء منذ ذلك اليوم ، قد أصبح ، بالمقدمة كأنه ((**صوت القدر**)) يدق على باب كل عربى يدعوه أن يحج الى أسوان ، فاننى شخصيا وبتجربة خاصة كنت دائما أحس بعامل خاص يجتمع مع تلك العوامل جميعا ملحا بطلب الاستجابة لنداء السد ، ويؤكد ضرورة الانطلاق ، تعبيرا عن هذه الاستجابة ، مع النيل عبر الصعيد ونحو **أسوان** حيث ((**موقع السد**)) .

ان هذا العامل الشخصي الخاص ، ينبع من تجربة حفرت معانيها فى أعماق نفسى منذ سنة ١٩٥٠ نضال التحدى .

انها تجربة مواجهة التحدى منذ ذلك التاريخ باعتباره :

- **أملا فلسطينيا عربيا جريحا ، فى عيون فتاة فلسطينية**
- **واستخفافا استعماريا وقحا صريحا ، بلسان صحفية انجليزية .**

ومنذ أن بدات قصة الكفاح لبناء السد العالى ، كان بناؤه يرتبط فى ذهنى بالاجابة العربية الثورية على ذلك التحدى بوجهيه :

- **تحقيق الأمل الفلسطينى العربى الجريح**
- **وصفع التحدى الاستعمارى الوقح الصريح**

فكون هذا الارتباط .. عنصرا أساسيا من عناصر ((**نداء السد العالى**)) الذى بقيت أحس به : نداء قوميا ، وحنينا انسانيا ، ملحا ..

لا اشك فى انه سيتردد فى نفس كل عربى « حتى تقول الهامة اسقونى !»

كان ذلك فى صيف ١٩٥٠ فلما دعت جامعة الدول العربية لعقد مؤتمر ثقافى عربى فى الاسكندرية ، كنت امثل الطالبات الجامعيات فى الوفد الرسمى السورى ، وكانت هذه هى رحلتى الاولى خارج نطاق سورية ، واذا كانت الرحلة الطويلة لها اثر فى النفس لا ينسي ، وخصوصا فى نفس الفتاة العربية التى تسافر خارج الحدود للمرة الاولى فى حياتها ، فاننى لن انسي ان **انفعالات** التطلع للرحلة ، كانت مزيجا من عوامل وعناصر مختلفة متباينة ، تنبض بها النفس ، ويخفق بها الوجدان .

كنت ، شأن الجيل العربى الصاعد فى تلك الرحلة ، اعيش فى مأساة فلسطين التى لم يكن قد انقضي على صنعها بأيدى تحالف الاستعمار والصهيونية والرجعية والعملاء الا وقت قصير ، وكانت آثار المأساة المادية والمعنوية تثير فينا ــ نحن الجيل الصاعد الفتى فى تلك الايام ــ كل معانى العزة والاعتزاز القومى ، وكل معانى التطلع المتفائل نحو الحياة .. فى حين ان الاعتزاز القومى والتطلع المتفائل الفرح نحو الحياة هما من السمات الطبيعية لنفوس من هم فى مثل اعمارنا من كل أمة حرة .

لقد كانت « الهزيمة » التى ذقنا مرارتها تمزق نفوسنا ، ونحن ندرك ان امكانيات الأمة العربية الحقيقية كانت قادرة لو عبئت باخلاص ــ ولو كان جزئيا ــ أن تواجه المؤامرة ، وان تحقق النصر .

وكانت آثار المأساة الانسانية مهينة صارخة فى وجوهنا ، ماثلة امام عيوننا .. مجموعات منتشرة هنا وهناك فى أجزاء الوطن من أبناء شعب فلسطين المناضل ، اكثرها امهات ثكالى ، وزوجات أرامل ، وفتيات يتامى ، شردهن تحالف الاستعمار والصهيونية مع الفئة العربية الحاكمة والرجعية ، تحالفا تنسقه احط اساليب التآمر والغدر والخديعة .

ومن هؤلاء الذين شردتهن الفاجعة كانت شريكتى على مقعد الطائرة التى تقلنا من دمشق الى الاسكندرية ، هى صديقتى الفلسطينية **أمل** التى فقدت فى معارك قرية ((**سلمة**)) المناضلة أخاها ((**محمود**)) فى خنادق الاستشهاد ، وفقدت والدتها تحت انقاض البيت ، وكانت قد غادرت ((**سلمة**)) بعد ان احتلها الغزاة فخرجت من فلسطين مع من بقى من عائلة فلسطينية ، حملت السلاح بكف ، ووضعت أرواحها على الكف الآخر، دفاعا عن العروبة فى أرض فلسطين ، وكانت ((**أمل**)) فى طريقها الى الاسكندرية لزيارة شقيقها الذى يتعلم فى احدى كلياتها .

وفوق السحب ، فى الأجواء العالية ، ومع أزيز محركات الطائرة ، دار بينى وبين « أمل » حديث لا أنساه ..

كان هذا الحديث هو صـــوت التحدى .. الأمل الفلسطينى العربى الجريح .

ثم كان ذلك أيضا وفى تلك الرحلة نفسها ، عندما كنا نزور القاهرة وجلسنا فى بهو فندق سميراميس وتقدمت نحونا صحفية انجليزية تطلب من رئيس الوفد أن تتحدث الى أعضائه .

وكان حديث « عذاب » دام حوالى ساعتين لا أنساهما ، ولا اشك لحظة فى أننى بالوعى وباللاوعى .. بقيت أرضع أطفالى ، معـــانى التحدى التى عشتها بالعذاب فيهما .

جاءت الانجليزية ، تطرح علينا أسئلة سياسية واجتماعية ، تلامس اكثر نواحى الحياة العربية وشعاراتها ، وأخذت تحاول بالاسئلة والاجوبة توجيه الحوار ، بشكل ينفث سم الاستخفاف فى صورة تحد استعمارى وقح لكل مقوم من مقومات وجودنا القومى ، ولكل معنى من معانى كرامتنا العربية .. ولكل عرق نابض بالامل فى المستقبل والثقة بالنفس ثقة ثابتة فى نفوسنا ..

كان هذا الحديث هو صوت التحدى لنا يصور استخفافا استعماريا وقحا صريحا بأهدافنا .

بهذا التكوين النفسي فى جميع عناصره ، كنت أنطلق مع أسـرتى نحو أسوان فى استجابة لنداء السد .

وأمام السد العالى وقفت .. واذا بأزيز المحركات والآلات الضخمة يتحول فى لحظات التركيز النفسي وبالتداعى ليصبح صوت محرك الطائرة التى حملتنا ، « أمل وانا » ، من دمشق الى الاسكندرية منذ اربع عشرة سنة .

ذكرت الأخت العربية الفلسطينية ، وتذكرت دمعة شقيقة الشهيد ، وحرقة الفتاة الفلسطينية اللاجئة ! فأصبحت بالذكرى وبالتداعى ، استعيد قصة الثورة العربية التى بدات أحرفها وكلماتها الاولى ، تخط بأحـرف من نور فى خط النار « بالفالوجا » ، وارتسمت أمامى صورة « البكباشي جمال عبد الناصر فى الفالوجا ، والمناضل الشهيد « محمود » فى سلمة ، وأمل الفتاة الفلسطينية فى الجو فوق الفيوم .

عاد الى الذاكرة حديث ((**امل**)) **فى الطائرة :**

قالت **امل** ، وهى ترنو بناظرها الى الشاطىء المحزون :

هناك يا اختى فى قلب بيارتنا .. **يرقد** اخى ((**محمود**)) ، ورفاقه الشهداء ويتمدد رفاة امى ، ولكن هناك **ايضا لا** تزال اشـــجار **الليمون** والبرتقال ، التى سقيناها بعرقنا تزهر وتثمر .

فيا شجر الخابور مالك مورقا   كأنك لم تجـــزع على ابن طريف

وبصوت تخنقه العبرات اضافت **امل**

ولكن .. كيف ؟؟ كيف حدث ما حدث ، كيف ضاعت الارض ، وسلب الوطن ؟ ، وهل سنعود يوما الى الارض ، وتعود الينا ونعود نحن وارضنا بالعزة والكرامة الى امتنا العربية ووطنا الكبير ؟؟ .

وقلت .. والمأساة ماثلة صارخة ، والاسباب صريحة واضـــحة ، والامل نبيح وجريح ..

يا امل :

ان الذى حدث ما كان مستغربا ان يحدث .. ان الامل بالعـــودة مرتبط بارادتنا نحن الجيل الجديد من ابناء قوى الشعب العاملة ، وهو يتوقف على مقدار ما تحقق هذه الارادة من اقتلاع لاسباب النكبة وعوامل الهزيمة والخيانة ، ومن بناء ايجابى لاسباب القوة ومقومات النصـــر .. فى الحياة القومية العربية .

اتسألين يا امل كيف حدث ما حدث ؟

ألم يكن الذين تولوا ادارة المعركة وقيادتها .. حكاما وفئة حاكمة ، وطبقات مستغلة ، تكون جميعها ، بمصالحها وحقائق وجودها جزءا لا يتجزأ من القوة الاستعمارية الصهيونية ومصالحها ، التى وضعت الخطط لتنفذ المؤامرة والمأساة ، وحددت لهم — ياويلهم — الدور ثم أصدرت لهم التعليمات ، فنفذوا الدور وفقا للتعليمات فى مذلة العملاء ؟!! .

يا اختاه ! ان معالم الطريق الى الارض السليب أن نطهر أرضـــنا من الاستعمار والعملاء ، ثم أن نقيم حول السرطان الجديد طوق قوة عربية ذاتية بالتحرر والوحدة ، والاشتراكية والتقدم .

وصمتت امل ، لأن تفسير أسباب المأساة لا ينزع من نفسها آثارها والاشارة الى طريق الامل بالعودة تحرك فى نفسها القلق والحيرة ، اكثر مما تبعث فيها القناعة والاطمئنان ..

واحترمت صمتها ! ..

وهبطت الطائرة فى مطار الاسكندرية ، ووقف هدير محركها ..

واليوم .. وانا اذكر ذلك الحديث ، هذا هو هدير الآلات ، وزئير المحركات فى السد العالى ، وذاك هو ازيز الطائرات العربية التى تسبق صوت ازيزها ، وهذه معالم المجتمع العربى الجديد تجيب بالقوة العربية الذاتية على تساؤل أمل .

هذا هو الانسان العربى الجديد ، الذى يدير الآلة ، ويبنى السدود ، ويصنع الطائرات ويقودها ، ويقيم المجتمع الجديد ليشق بالقوة العربية الذاتية معالم الطريق الى فلسطين .

فكم وددت لو كانت « أمل » بجانبى ، لأرى فى عينيها ومضة الثقة بالعودة ، تمحو صورة الدمعة بالمأساة ، كما رأيت هذه الومضة فى عيون الفلسطينيين الذين يعملون فى السد العالى ، لأردد واياها قول التاريخ العربى « رحم الله قادة المأساة بقدر ما اخلصوا لقضية فلسطين ، وبقدر ما أفادوا أمتهم » !

هذا هو جوابنا العربى الثورى على التحدى ، املا عربيا فلسطينيا جريحا ، ... وأمام السد العالى الذى ينهض ماردا صناعيا جبارا ، ويقيم اساسا عريضا للتصنيع الشامل ، وبما شاهدناه من المصانع التى ترتفع مداخنها هنا وهناك على الطريق من القاهرة الى اسوان ، وفى اسوان ... ذكرت تلك الصحفية الانجليزية ... وتذكرت عذاب حديثها :

قالت ، وعنجهية الاستعمار والاستغلال تبدو فى قسمات وجهها ونبرات صوتها : ما معنى « المؤتمرات » الثقافية العربية ، ان ثقافتكم اليوم من صنعنا وتصديرنا .. انجليزية أو فرنسية فأين مقومات العروبة فيها ؟

واضافت وهى واقفة لتنهى الحديث ، وكأنها صوت القدر :

ايدير رءوسكم ما ترونه هنا فى قلب القاهرة ، من تقدم وحضارة ؟ لا تخدعوا انفسكم هذه القاهرة لنا نحن ، وكذلك وادى النيل وارضه ، جلاؤنا عنها حلم خادع ، لا يساويه فى لامعقوليته الا املكم الزائف فى ان تقيموا فى ارض مزرعتنا القطنية الكبيرة المصانع ، وان ترسو بأيدى

ابنائها من الفلاحين اسس التقدم الصنـــــاعى ، فالأرض لغير الزراعة لا تصلح ، والأيدى لغير الفأس القديم لا تنفع .

ثم .. اخرجوا قليلا عن قلب القاهرة الذى يكاد يكون منطقة أوربية انجليزية لتروا « انفسكم » فى الأحياء القديمة ، وفى الريف النائم ! .

انكم لو احسنتم الفهم والتصرف ، ولو وعيتم الواقع والحقائق ، لاقتنعتم بأننا نحن أملكم فى التطور الحضارى الوئيد ، والتقدم الزراعى المفيد ، ولأدركتم اننا نحن القدر الذى يحميكم من أخطار الصـــــهيونية ، وويلات الشيوعية ، اعترفوا بالأمر الواقع ، واصـــــطلحوا معه ونحن « بتصريح » نضمن « الاوضاع » فى المنطقة ونحمى الحدود والتوازن فيها ولا نسمح بالعدوان فيها أو عليها ، وسبيلكم للوقاية من ويلات الشيوعية وطريقكم لأداء واجبكم تجاه الانسانية أن تدخلوا احد دروع عالمنا الحر ، وهذا « حلف البحر المتوسط .. ادخلوه تصبحوا فى سلام آمنين » .

ولقد خطرت ببالى ــ وانا أتذكر فى موقع السد بأســـوان حديث العذاب هذا ، ــ أحداث الوطن العربى منذ ٢٣ يوليو سنة١٩٥٢ ، شريطا يروى الكفاح والبطولة والاستشهاد .. ثم لاحت لى ، قصة المد الثورى العربى الذى انطلق مع فجر ذلك اليوم المجيد ، على نطاق الوطن العربى بلا حدود .

ارادة الحياة فى امة اصيلة .. تعيد بالثورة صنع حياتها ، وتؤكد بالكفاح والبناء ارادتها .

وكم وددت أن أعرف ، أين هى هذه الصـــحفية الانجليزية ، وماذا تراها اليوم تقول ، ولكم رغبت ــ ولا شماتة ــ أن تكون معى فى أسوان لأشهد ((**اللبؤة البريطانية ..**)) وقد قص ذنبهـــا ، وهشمت أنيابهـــا ، وتحول زئيرها الى نباح ، ولكى أصرخ ــ فى أذنيها وفى وجهها أيضا ــ بصوت يرتفع على هدير الآلات فى السد العالى فأقول :

أترين وتسمعين .. جوابنا الثورى على التحدى .. اســـتخفافا استعماريا وقحا صريحا ؟

هل ترانى ، بعد هذا ، فى حاجة للاعتذار عن الاعتراف «بالعاطفية» وبما أثاره السد العالى ببنائه وبناته فى نفسي من مشاعر وأحاسيس ؟ لقد تفجرت دموع الفرح فى عينى وانا لا اكاد اصـــدق ما تراه عيناى ، وفى وجدانى من عواطف وانفعالات ، سرت فى الكيان ، دفعات اعتزاز

باحراز النصر ، فى مواجهة تحد كان القلب ينبض دائما بالاشـــــفاق من احتمالات التقصير عن احرازه ..

ثم هل ترانى فى حاجة للاعتذار عن اصدار كتـاب فى هذا المارد المادى العلمى الجبار الذى يقوم صرحا لانتاج وتفجير طاقات ، على حين انه فى مضمونه ومحتواه كتاب يصور الأحاسيس والانفعالات ، ويعبر عن المشاعر والعواطف ؟

كلا !! لست بحاجة الى شيء من هذا :

فالسد العالى اكثر من جميع ابعاده الفنية والاحصائية ، بل والمادية على روعتها وضخامتها .. واكبر ، فهو تذكار حى خلاق ، وليس مجرد حجر أصم تلقى الزهور من حوله فى المناسبات ..

اننا فى أرضنا أقمناه ، وبسواعدنا بنيناه .

وبالسد العالى تأخذ الارقام الكبيرة ، والاحصـــــائيات الجبارة ، معانيها الانسانية النابضة بارادة الحياة والحرية والكرامة ، التى تكون قيم الحياة العربية الجديدة

بل ان هذه المعانى تكون أعمق فى انسانيتها ، واكبر فى دلالتها ، من المعانى التى يحيلها « البناء الضخم » فى أية أرض اخرى ، ذلك ان السد العالى انما يقوم صرح تحرر وتقدم وكفاية وعدل فى نقطة تكاد تكون هى سويداء القلب من الوطن العربى الكبير ، ومركز الثقل فى العالم القديم بقارتيهالكبيرتين : آسيا وافريقية ، فيقوم برغم أنف الاستعماروالاستغلال والتخلف فى نقطة من العالم عمل الاستعمار جاهدا على أن تبقى أسيرة الاستعمار والاستغلال والتخلف .

الفصل الثانى

من القاهرة الى اسوان

والحياة على ضفاف النيل
مع موكب الحضارة والتاريخ

ان الأمة العربية لم تعد فى حاجة الى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها .

لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحـــلة واصبحت حقيقة الوجـــود العربى ذاته .

يكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصـنع وحدة الفكر والعقل .

ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التى تصـــنع وحدة الضمير والوجدان .

ويكفى أن الأمة العـــربية تملك وحدة الأمل التى تصـــنع وحدة المستقبل والمصير .

« ان الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من اساسها ، مستدلين بقيام خلافات بين الحكومات العربية ، ينظرون الى الأمور نظرة سطحية »

« ان التقاء القوى التقدمية الشعبية على الامل الواحد فى كل مكان من الأرض العربية ، وتجمع القوى الرجعية على المصالح المتحدة فى كل مكان من الأرض العربية ، هو فى حد ذاته دليل على الوحدة اكثر مما هو دليل على التفرقة » .

الميثـــــاق

« الباب التاسع »

أصبحت « ضرورة » التوجه الى اســــوان فى مطلع عام ١٩٦٤ مختمرة فى نفسي ، وكان لابد من القيام بالرحلة خلال الأشهر الأولى من هذه السنة . فقد كانت ((**الخطة**)) تقتضي اتمــام المرحلة الأولى من بناء السد العالى فى ١٥ من مايو سنة ١٩٦٤ .

وكان ضروريا وحتميا ، ففى تصورى ، أن نشهد عملية البناء الضخم قبل اتمام المرحلة ، وان نسير على أرض قنـــاة التحويل ، وعلى أرض الانفاق الستة ، قبل أن تنطلق مياه النيل لتغمرها كلها الى الابد ، وكان فى هذا معنى من معانى التطلع الانسانى للخلود .. والتطلع الخلود من خلال الاتصال بالأعمال الخالدة جزء من انسانية الانسان وحقه !

وكانت تتحكم فى ترتيبات رحلتنا الى اسوان ، عوامل تخضـــــع لأوضاع الاسرة :

عبد الله يكره بطبيعته مراسيم الاعيـــــاد ، والبقاء فى البيت لاداء الواجبات التى تمليها باستقبالاتها ورد الاستقبالات .

واطفالنا فى مدارسهم ، لا يحسن انتزاعهم منها ، للاشـــتراك فى الرحلة التى كنت اريد ان يشتركوا فيها ، وان يشـــاهدوا معنا ميلاد السد العالى .

والأمر بعد ذلك ، كان يتطلب منى تنفيذ خطة محكمة لتمويل الرحلة ..

وقبيل حاول عيد الفطر ، وكانت عطلة المدارس قد صـــارت على الابواب ، طرحت الفــكرة .. وكان نقاشنا اشترك معنـــا فيه الأطفال انفسهم ، كما شاركنا فيه بشكل مباشر كثير من الاصدقاء .

واستقر الأمر على ما كنت ارغب ان يستقر عليه ، وهو ان ننطلق الى اسوان برا ، بالسيارة ، مع النيل عبر بلاد الصعيد ، وان نمكث فى اسوان اياما لا يحدد عددها ، الا استكمال تجربة الاســـتجابة لنداء السد ، والوقوف المتمع مع بناته ، وان نعود بعد ذلك ، لنخترق الصحراء ، فنطل على البحر الأحمر فى « مرسي علم » ، ثم نسير مع شواطئه شمالا الى السويس ، فالقاهرة .

كانت الرحلة ، بهذا التخطيط ، تعنى أن نقطع مسافة (٢٠٠٠) كم تقريبا ، فنتمكن بعدها اذا احسنا توزيع الوقت والافادة منه ، ان نقول : اننا اصبحنا نعرف الاقليم المصرى من الجمهـــورية المتحدة معرفة تاريخ وتراث ، وطبيعة أرض ، معرفة حياة وشعب وثورة ، ولقد اكدت لى هذه

الرحلة فى ابعادها ما كنت اقدره دائما ، وما يصح فى كل قطر تقريبا ، وعلى الأخص فى الاقطار العربية ، لأسباب تاريخية واقتصادية واجتماعية ، من أن أحدنا ، لايعرف حقيقة الشعب العربى ، فى اى قطر من اقطاره ، ويلمس ضميره ووجدانه ، من خلال العواصم والمدن الكبيرة.. فحقيقة الشعب العربى فى كل قطر ، تبدو فى أصالتها ، وتبدو فى مقومات الشخصية العربية الراسخة فى أرضها ، بالريف العربى الذى يؤلف الأمة العربية ، مالا يقل عن ٨٠٪ من مجموعها .

لقد حاول الكثيرون من الأصدقاء أن يثنونا عن الانطلاق الى اسوان بالسيارة ، وعن العودة للقاهرة عن طريق الصحراء فالبحر الأحمر ، كان بعضهم يجد فى الرحلة نوعا من المغامرة غير المأمونة التى لا تجوز ونحن نصحب اطفالنا الخمسة معنا ، وكان البعض الآخر يؤكد — دون معلومات تبرر هذا التأكيد — أن الطريق فى مئات الكيلومترات منه لا يصلح للسير ، بل كان البعض من هؤلاء الاصدقاء ، وهم من أبناء الجمهورية العربية القاهريين ، لا يتردد فى الاشارة الى « رهبة » السير وخطورته عبر الصعيد فى سيارة منفردة ، وكان كل ذلك يبدو فى صورة تحد ، كان حماس أطفالنا لمواجهته ، لا يقل عن عزمنا على تخطيه .

ولم اكن أريد ، ان نهبط على اسوان بطائرة تختصر الطريق من القاهرة الى اسوان ، بل تلغيه الغاء !

ولم اكن أريد ، أن ننطلق فى القطار ، فنمر عبر الصعيد ، وظلامة الليل تلفه ، وامكانية التفاعل — ولو كان مختصرا — مع أبنائه تفوتنا ، وكنت المس فى عبد الله الحنين القروى الملح ، فى أن يعيش أياما على الطريق ، مع الصعيد وفيه ، مع الريف وأهله .. فهو قروى نشأ فى قرى جبال فلسطين .

وفى صباح يوم الثلاثاء الحادى عشر من فبراير ، انطلقت بنا السيارة « باسم الله مجريها ومرسيها » من بيتنا فى الدقى لنسير مع الفجر الى الجنوب مع موكب الحضارة والحياة على ضفاف النيل الخالد .. !

وموكب الحضارة والحياة الذى تسير فيه ، وأنت تنطلق من القاهرة الى اسوان ، موكب يكاد يكون فى طوله كطول تاريخ الحضارة الانسانية كله ، وهو موكب تمر به عبر الزمان ، لتشهد تطور الحضارة والحياة ، بشكل لا يضاهيه فى تكامله اى موكب آخر .

انه ينقلك معه الى اقدم الحضارات واعرقها ، حضارة مصر الاولى ، التى تكون رافدا عذبا من روافد الحضـــارة العربية القديمة والحديثة ، والتى اسهمت بجميع أبعادها ، فى صنع الحضارة الانسانية كلها .

وهو بعد ذلك موكب ، يمر بك عبر الحضارة العربية الاسلامية ، التى انصهرت فيها منذ الفتح العربى الاسلامى ، بما حملت راياته من معان وقيم انسانية ، لشعوب بلاد الوطن العربى وحضاراتهـا منذ ذلك التاريخ .. لتصنع تلك الحضارة العربية الاســلامية من هذه الشعوب ، أمة ملكت من مقومات الامم أصلبها ، ودافعت بعد ذلك عن هذه المقومات ، فى وجه محاولات لسحقها كلها او بعضها ، فتصنع هذه الأمة وقوميتها ، بالتراث والحضارة ، والمصلحة المشتركة ، من بلاد هذه المنطقة ـــ وطنها العربى ، الذى يمتد عامرا بالحضارات ، زاخرا بالثروات ، من الخليج الى المحيط .

وتشهد ـــ بسيرها مع موكب الحضـــارة والحياة هذا ـــ عصور الظلم والظلام التى خيمت على هذه الأمة العربية ، فى كل جزء من أجزاء وطنها ، منذ الفتح العثمانى ، بل تحت وطأة الاستعمار التركى :

ثم لا تلبث أن تستمع ، وانت تقترب مع الموكب فى ســيره ، من الماضى الى الحاضر ـــ أصوات الاستعمار الراسمالى الأوروبى الصاعد وسياطه ، وهو يحاول أن يفرض بأبشع وسائل الاستعمار بربرية ، فى اعرق البلاد حضارة ، وعلى جزء من أمة هى من أغنى الامم تراثا وكرامة اقسى الأوضاع المادية والفكرية والروحية ، التى يحملهـــا الاستعمار والاستغلال معه اينما حل ، وحينما رحل .

ومن خلال رياح التمرد الانسانى وصفيرها ، ، والنضـــال القومى ، التى تسمع ترديده لا ينقطع .. عبر هذه المراحـل التاريخية ، صراعا « متواصلا » فى صـــور متباينة متجددة ، ضد الاستعمار والاســتغلال والاستبداد ، فانك لاتلبث أن تستمع الى موجات رياح التمرد والنضال ، واذا بها تتحول فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الى انفجار اعصار الثورة .

وبهذا تبلغ فى سيرك الحضارى ، المرحلة التى تجرى فيهـا مياه الحياة ، تيارا خلاقا ، بعد أن زالت بانفجـــار الاعصار الثورى ـــ الموانع والمصالح ، التى كانت تقف ، أمام تيار الحياة لتمنعه أن يسير فى الارض بحرية وكفاية وسلام ، حاملا للناس العدل والكرامة والمحبة .

وكم كان رائعا وعظيما ـــ وانا احب التاريخ ، حتى لقـــد اخترته

منهجا لدراستى فى الجامعة ، واهوى الآثار ، حتى اننى لأجدها نابضة بالحياة ، معبرة عن الخلود الانسانى .. اننى كنت طيلة هذه الرحلة ، اعيش فى تيار أطول تاريخ ، وبين آثار أعرق حضارة ، وتعيش معى أسرتى فى هذه التجربة الناطقة . أسئلة متتالية ، متلاحقة ، أمام الآثار الخالدات يطرحها الصغار ، ونقاشات تبدو فى بعضها ، روح المعاكسة ، يثيرها عبد الله ، ليثير بها الاطفال على ، أو على بعض معلوماتى وآرائى .. وهو يقول لابنائه بين الحين والآخر ، بصور متباينة — الا ترون أن أمكم تصلح لأن تكون بين هذه الآثار ، وفى أحد هذه المتاحف .

من القاهرة الى أعالى النوبة ، على ضفاف النيل العظيم ، تقوم أعظم الآثار فى العالم على الشاطئين الشرقى والغربى ، وفى مواقع مختارة لأسباب تاريخية أو علمية ، وهى تقوم على صورة منارات رائعات ، تحكى فى صمت النيل ، بكل شيء فيها ، من الموقع الى البناء الى التماثيل ، الى النقوش الى الالوان — قصة مراحل متتالية ، متصلة من الحضارة والتاريخ ، وهى — بما كانت عليه — تقص علينا ما عرفه هذا التاريخ ، وتلك الحضارة ، من حياة الانسان المادية والعقلية والروحية ، وما اصاب هذه الحياة من تطورات ، وما عرفته من صراع ، وتسجل هذه الآثار الرائعة ايضا ، فيما أصاب الكثير منها من تحطيم أو تشويه أو سرقة ، ما تعرض له وادى النيل من غزوات وغزاة ، وما أصاب منائر حضارته وكنوزها من نهب وسلب ، بيد الدول الراسمالية الاستعمارية الحديثة ، التى لم تكتف بنهب الثروات الطبيعية واستغلال الجهود البشرية ، فامتدت تعبث بالآثار الحضارية .

ان لصوص الاستعمار والاستغلال ، هؤلاء الذين تركوا على الأرض آثار الغزو والاستبداد والظلم ، تركوا ايضا بصمات اصابعهم الأثيمة ، فى المعابد والمقابر ، وغيرها ، من هذه الآثار ، عندما سرقوا قطعة من هنا ، وأخرى من هناك ، فأصبح مكانها فارغا فراغا يشير الى اللصوص بل يدل على جرمهم .

فهذا تمثال افتقد صنوه يقول بلسان حاله : اين يقوم هذا الصنو بالسرقة او بالنهب ، فى متاحف عواصم دول الاستعمار ؟ وهذه قاعدة تفتقد مسلتها ، تشكو اليك المغامرين من اللصوص الذين سرقوها لتزين هذا او ذاك من ميادين هاتيك العواصم .

ولكن ... على الرغم من هذا كله !!

وعلى الرغم من الزمن ، الذى تحدته هذه الآثار فى هياكلها وتماثيلها ، وألوانها وروعتها ، فصمدت له الآف السنين .

وعلى الرغم من آثار الصراع ، الذى كان يقوم بين أسرة واخرى ، وملك أو آخر من اسر المصريين القدماء وملوكهم ، فيصيب هذا الصراع فى نتائجه بعض تلك الآثار .

وعلى الرغم من محاولات التحطيم والاتلاف التى تعرضت لها هذه الآثار على ايدى الغزاة ، الذين تشاهد آثار محاولاتهم ، خدوشا جارحة ، ان كانت قد شوهت بعض تلك الآثار ، فانها لم تقو على اتلافها أو طمس معالمها .

وعلى الرغم من غارات اللصوصية والسلب ، التى افتقدت بها هذه الآثار فى هياكلها ومعابدها ، وفى ساحاتها ومقبرها . الكثير من كنوزها الرائعات فان هذه الآثار لا تزال قائمة فى كبرياء ، ترصع شريط الحياة الممتد على مجرى النيل ، أو تطل من بعض التلال عليه ، لتروى فى مهابة وجلال قصة الحضارة الطويلة ، العريقة الرائعة !!

تمتد الطريق ، من القاهرة الى اسوان ، مع مجرى النيل ، وتسير فى شطه الغربى ، حتى تصل الى بلدة « نجع حمادى » فى نقطة تقع الى شرقى الواحات الغربية ، ثم تعبر منها فوق **قناطر « نجع حمادى »** لتنتقل بك الطريق فى مسيرك من الشاطىء الغربى الى الشاطىء الشرقى، وينتقل النيل بذلك من يسارك الى يمينك ، وانت تتجه نحو الجنوب .

وعلى ابعاد متفاوتة من الطريق فى الجانبين : الغربى والشرقى ، تقوم مناطق الآثار التى ترتفع فوق سطح الارض فى صورة معابد ، وهياكل ضخمة أحيانا ، وتنحدر اليها انحدارا عميقا فى باطن الارض ، على صورة مقابر احيانا اخرى ..

فاذا غادرت القاهرة مع الفجر — كما فعلنا — فكانت الاهرام .. أهرام الجيزة ، وسقارة ، ودهشور ، ترتفع جبارة وقد لفها ضباب الصباح الباكر وقطعت فى سيرك حوالى ١٦٠ كم ، لتبلغ مدينة المنيا ، اصبحت تقوم الى يسارك ، فى البر الشرقى ، منطقة الآثار المعروفة **(بمنطقة بنى حسن)** حيث توجد مقابر اثرية يبلغ عمرها حوالى ٤٠٠٠ سنة . وتقع الى الجنوب منها فى البر الشرقى نفسه ، **منطقة تل العمارنة** الشهيرة ، التى حلت فى مكان اقامة **اخناتون** زوج **نفرتيتى** ، ووالد زوجة **توت عنخ آمون** .

واذا كان اسم « اخناتون » يقترن عبر التاريخ ، بديانة التوحيد وبآتون الذى آمن به أخناتون ، الها واحدا ، وخاض معارك وصـراعات قاسية ، من أجل تأكيد وحدانية الوهيته .. فلقد وجدت زوجته نفرتيتى السورية الاصل ، سبيلها الى الخلود ، من خلال مقومات الجمال الملهم ، التى لا تزال تفرض نفسها فى تماثيل صغيرة وكبيرة قادرة على الرغم من برودة الحجر ، أن تثير الاحاسيس بجمالها فى النفوس حتى اليوم .

فاذا بلغت فى سيرك مدينة « جورجا » على بعد ٥٠٠ كم من القاهرة كانت تقوم الى يمينك فى الشاطىء الغربى منطقة آثار اعظمها معبد الملك سيثوس الاول فى ابيدوس .

وبعد أن تنتقل بعبور « قناطر نجع حمادى » الى الشاطىء الشرقى فتبلغ « قنا » تغادر على الشاطىء الغربى آثار دندرة ، حيث تجد معبد الآلهة « هاتور » ومعبد « تنيزا » .

وفى محافظة « قنا » الغنية بآثارها ، المتناثرة على الشطين الشرقى والغربى ، تبلغ ذروة الروعة حين تصل الى الاقصر ، اذ تجد فى الضفة الشرقية معبد الاقصر ، ومعبد الكرنك ، تقابلهما على الضفة الغربية منطقة اثرية تضم وادى الملوك ، ووادى الملكات ، والرامسيوم ، ومقابر النبلاء ، وتمثالا ممنون ، والدير البحرى وغيرها .

ان روعة الآثار فى الاقصر ، واتساع المساحة التى تقوم عليها ، فوق سطح الارض فى الشاطىء الشرقى ، حيث تقوم المعابد ، وتحت سطح الارض فى الشاطىء الغربى ، حيث توجد المدافن ، التى لابد أن تنحدر اليها ، بعشرات السلالم .. تلك الروعة ، وهذا الاتساع ، تفرضان عليك أن تبقى فى الاقصر ، ما لا يقل عن يومين أو ثلاثة ، لتشاهد هذه الآثار الرائعة مشاهدة تواكب فيها قدماء المصريين ، وتتمتع بفنهم الرفيع ، ولا بد لك من مرشد مثقف ، يساعدك على فهم الكثير مما تراه وعلى تقويمه .

واختيار البر الشرقى مكانا لاقامة المعابد ، والبر الغربى مكـانا للمدافن ليس مصادفة ، لأن مصدره معتقدات قدماء المصريين ، الذين كانوا يعبدون اله الشمس آمون ، فيقيمون المعابد فى البر الشرقى من النيل ، حيث يشرق الآله فيستقبلونه بالتراتيل والترانيم الصباحية ، ويقيمون المدافن فى البر الغربى ، لتسكن فيها أرواح ملوكهم ، ابناء الآله ، .. حيث يغرب .

لست بمقدمة على محاولة وصف مسهب أو موجز لهـذه الروائع الاثرية الحضارية فهذه مهمة لست مؤهلة لها التأهيل الفنى ، ولست أيضا بصددها .

ولكن بعض الانطباعات والافكار التى تثيرها مشاهدة هذه الآثار ؛ تبقى بشرح الدليل الكافى ، فى متناولى ، واجد من الضرورى أن انقل بعضها للقارىء كأساس لابد منه ، للعبور على جسر الحضارة القديم العريق .. الى صرح الحضارة والحياة الحديث العالى .

تروى هذه الآثار وتصور ، أحداث التاريخ الكبرى وصراعاته ، وخيطها المتصل فى وادى النيل ، صراعات ومعارك داخلية خارجية ، مادية وروحية طبقية وغير طبقية ، وهى تروى بعد ذلك وتصور فى دقة وجمال ، الحياة الاجتماعية والعقلية والروحية ، الراقية والفنية بمقاييس عصرها ، التى قامت منذ آلاف السنين فى الوادى ، كما تروى وتصور أيضا ، الصلة العميقة والمميزة ، التى كانت تقوم فى هذا الوادى ، منذ اقدم حضاراته بين الانسان والارض والنيل ، وبين الشمس والخصب والفيضان ، والحصاد .

ولعل أقوى المعانى التى تصورها لك هذه الآثار ، أن العناية بالحياة الاخرى تكاد تسيطر على الحياة الدنيا ، وهى أيضا تعبر عن الاتجاه الذى لايرى فى هذه الحياة الدنيا ، الا مرحلة عابرة الى الحياة الخالدة .. حياة الروح فى العالم الآخر ، فى مملكة الآلهة .

لذلك كانت المقابر والمدافن ، تلقى من العناية الفنية ومن روعة البناء والزخرف ما يكاد يربو على ما تجده المعابد نفسها .

والمعابد ، شأن المقابر ، القديمة تمضي فى عمرها الى اغوار التاريخ آلاف السنين .

وعلى الرغم من التطور الذى تلمحه وتعرفه عين الخبير ، فان المعابد كلها تقريبا فى هندستها العامة ، تتكون من قاعة خارجية هى قاعة جماهير الشعب ، تحف بها الاعمدة الضخمة ، ذات التيجان التى تمثل زهرة اللوتس او « البيبرس » أو غيرهما وفقا للمرحلة والعصر ، وتعبر من قاعة الشعب الى قاعة أصغر منها هى قاعة النبلاء ، وتنتقل من هذه الى قاعة الامراء .. فتصبح بذلك على أقرب نقطة من غرفة الكاهن الاكبر الذى يتولى « قيادة » عملية العبادة وطقوسها ، وقد استطاع المهندسون القدماء ، الذين بنوا هذه الهياكل الضخمة ان يحلوا مشكلة

النور والتهوية ، كما انهم توصلوا الى تكبير صوت الكاهن كى يصل الى مسامع الشعب فى القاعة البعيدة الخارجية ... كل ذلك بهندسة البناء نفسه .

وفى هذه المعابد ، وعلى جدرانها وفوق قاعاتها وردهاتها .. تشهد وصف « الحياة » .. السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فهذه مثلا تماثيل الملوك الضخمة ، تقوم تماثيل زوجاتهم معها صغيرة تافهة فى حجمها ، وتقف بين قدمى تمثال الملك أو الى جانبه .. ولا عجب فالملك ابن الآلهة ، وليست كل ملكة كذلك .

والتيجان الموضوعة على رءوس هذه التماثيل تتحدث عن انقسام وادى النيل وتوحيده عبر الصراع بين الملوك والأسر ، أما المعارك فمخلدة بالنقوش ، التى تسجل ، لكل ملك ، انتصاراته وفتوحاته ، وتصور « المغلوبين » وهم يعانون فعلا معنى عبارة « الويل للمغلوب » .

اما المقابر والمدافن .. فانها تجد من العناية الفنية ، ومن روعة البناء والزخرف ، ومن اساليب المحافظة عليها .. سواء بالاهرام الضخمة التى تبنى فوقها ، أو بالاعماق الكبيرة التى تنحت فى الجبال لكى تحميها ، وتخفيها ، يقف الانسان أمامه طافحا بالدهشة والاعجاب والصمت ، لكن لاغرابة أيضا « فالنظرة » للحياة الدنيا ، وتقويمها بالنسبة للحياة الاخرى ، لابد أن تنعكس فى هذا المستوى .

ان معابد الاقصر والكرنك القائمة فى البر الشرقى من النيل ، وفى وادى الملوك والملكات ، بمدافنه النائمة فى سكونها ، تحت الارض ، فى البر الغربى ، تعطى اضخم واروع واغنى صورة للآثار المصرية القديمة .. معابدها ومدافنها ، ويكاد الوصف الموجز لبعض ما فيها يغنى عن محاولة وصف اية هياكل أو معابد او مدافن اخرى على الطريق من القاهرة الى اسوان .

ان ضخامة معبد الكرنك منشؤها اشتراك أكثر من ملك فى بنائه ، وتسجيل أكثر من انتصار على جدرانه ، والتنافس بين كل الملوك ، على اضافة الأوابد ، التى تزيد فى روعته وفخامته ، وفى الثروة الفنية المرسومة على جدرانه ، وفى « البحيرة المقدسة » التى لاتزال موجودة سليمة فى ارضه ، بعد آلاف السنين .

وعلى الرغم من تعدد حجراته الكثيرة ، وردهاته الفسيحة ، ذات الجدران العظيمة ، فان اهم جزء فيه ، هو بهو الاعمدة الذى اقامه تحتمس

الثالث ، الذى سجل على جدران معبد الكرنك أخبار حروبه ، وأخبار اسطوله البحرى الذى جعل من مصر ، أقوى دولة فى البحر المتوسط اذ ذاك .

وبالرغم من ان تحتمس عنى عناية خاصة بالمسلات ، وأقام منها الكثير فانه لم يبلغ فى هذا المضمار .. ما بلغته حتشبسوت بمسلتها الشامخة ، التى تعد من اجمل المسلات واضخمها واكبرها ، ويبلغ ارتفاعها أكثر من ٣٠ مترا ، وهى لاتزال قائمة فى المعبد ينتظر راسها الرشيق العالى أن يجذب اليه الآله النسر « حورس » ليحط عليها ، أما شقيقة هذه المسلة فقد سرقها « اللصوص » لتقام بعيدا عن أرضها فى أحد الميادين بلندن.

ان المشاهد يسيطر عليه اعجاب بالغ امام الآثار الخالدة التى تركتها هذه المراة وتتجلى روعتها فى معبد « الدير البحرى » على البر الغربى ، الذى اقامته تخليدا لذكرى رحلة أسطولها التجارى الى بونت « الصومال»، وقد سجلت حتشبسوت بكل فخر واعتزاز وقائع الرحلة ، على جدران المعبد القائم فى أحضان الجبال ، التى تحميه من تقلبات الطبيعة واحداث الزمن ، كما زرعت فى حديقته بعض الاشجار التى نقلها المصريون بسفنهم من بلاد « بونت » ، ومن أمتع ما تراه ، واكثره دعابة صورة حاكم بونت .

ان اعجابى بالملكة حتشبسوت بالغ العمق فاذا كان التاريخ قد خلد ، « نفرتيتى » بجمالها ، « والزباء » ملكة تدمر بشجاعتها ، وكليوباترة بحبها ، فان التاريخ ليسجل بكل فخر اعمال حتشبسوت التى يعجز عنها الرجال .

لقد كانت تلبس أحيانا ملابس الملوك الرجال ، وتضع لحية مستعارة ، وقد لعبت دورها كملكة خالدة ذات شخصية قوية ، وارادة فولاذية .

ولهذا فاننى لم أحس فى حياتى بموقف الرجل التقليدى من المراة .. كما أحسست به عندما شاهدت محاولة تشويه تماثيل حتشبسوت وآثارها من لدن أخيها تحتمس الثالث الذى لم يتردد فى العمل على طمس معالم وجهها من جدران الدير البحرى ، واخفاء مسلاتها فى الكرنك ، وتشويه اعمالها الخالدة .

وتراها صورة .. من صورة الصراع .. بين الرجل والمراة ، وعلى الاخص عند ما يكون صراعا على السلطة والملك .

أما المقابر والمدافن فى البر الغربى ، فانها فى الحقيقة ، ذخيرة فنية رائعة ، تتجلى فيها روعة الفن ، فى روعة الرسم والوانه ، الصامدة آلاف السنين ، وكأن يد الفنان قد فرغت لتوها من طلاء الجدران بها ، وفى روعة النحت على الجدران ، سواء أكانت القصة منحوتة ، بالنحت « النافر » أو بالنحت « الغائر » .

وعلى الرغم من أن هذه المقابر تعرضت — برغم جميع وسائل التعمية والتضليل الفنية — الى غارات اللصوص وعبثهم .

وعلى الرغم من أن هذه المقابر ، أصبحت فى يوم ما ، ملاجىء لاذ بها معتنقو الديانة المسيحية ، فى أوائل انتشارها خوفا من بطش الوثنيين، وما نشأ عن هذا من تشويه فى الجدران والسقوف ، بفعل دخان النيران ، الذى كان يشعلها هؤلاء اللاجئون ، فقد بقيت هذه المقابر ، محتفظة ببهائها وروائها والوانها الزاهية ، التى تسجل الذوق الرفيع والاتجاه الفنى ، لخلق جو مرح حول الروح تنعم به فى عالمها الآخر .

ولكى تبلغ الوادى لابد لك أن تنتقل الى البر الغربى فى زورق يرقص بك عبر النيل الى الضفة الاخرى حيث يوجد الوادى الذى يضم مقابر الملوك والملكات والنبلاء .

وعند ما تنزل من القارب فى البر الغربى تمضي الى هذا الوادى فى السيارة وهى تتدرج بك فى صعود هادىء ، حتى تصل الى منطقة بين تلال صخرية تشبه فى أشكالها الاهرام ، وخلال انطلاقك هذا نحو الوادى ، ومنذ اللحظة التى تصبح فيها على أبوابه ، تحس بروعة تلتقى فى صنعها الطبيعة والتراث ، ويخبرك الدليل المرافق ، عن العوامل التى قررت اختيار هذا الوادى مثوى للملوك ، فتجد من بينها أسبابا علمية تتعلق بطبيعة الصخر ، وجفاف المناخ ، وتجد بينها أيضا أسبابا انسانية وتراثية .. فالمنطقة توفر بطبيعتها الحماية من احتمالات غارات الاحياء على مدافن الاموات ولا سيما عند ما يكون الاموات ملوكا وملكات ، وشكل التلال الهرمى يوفر الشعور الوراثى بأن يكون المدفن على شكل الهرم .

والمقابر الملكية فى وادى الملوك كثيرة ؛ بعضها يعود للأسرة الثامنة عشرة ، وبعضها الآخر يرجع للأسرة التاسعة عشرة ، وبعضها يعود للأسرة العشرين ، ولعل أفخمها واعظمها هو مقبرة « سيتى الاول » .

وتنحدر الى هذه المقبرة — كغيرها — بسلم طويل ، تواجه فى نهايته وسائل الحماية والتعمية والتضليل : حجرات وابواب وحفر عميقة

صنعت كى تبعد اللصوص والمتطفلين عن المدفن الحقيقى وكنوزه .. ولابد من تخطيها لتصل الى هذا المدفن الحقيقى . وتقف أمام ما هو باق من هذه الكنوز .

وعلى جدران المقبرة — كل واحد منها تقريبا .. تشهد رسوما دقيقة مفصلة تصف رحلة روح الملك ، صاحب المقبرة ، الى العالم الآخر .

والانتقال ، بالموت ، الى الحياة الاخرى رحلة طويلة مليئة بالاخطار ، تتم فى زورق يعود به الانسان الى العالم الآخر ، وتجد الكثير من النقوش والرسوم تصويرا مفصلا لمراحلها ، وللتجارب والمعارك التى تخوضها الروح فى أثناء العبور اليها ، ورسما متقنا للقرابين ، والتبركات ، التى تتلقاها الروح من الآلهة ، ولميزان أعمالها وتقديرها ، حتى انك لتجد رسوما تمثل فكرة السير على الصراط المستقيم .. الذى لابد أن تنجح « الروح » بعد كل معاركها فى المرور عليه ، لتصل الى شاطىء الامان ، ودار الخلود ، ولفكرة ميزان الحق ، الذى يزن ما قدمته يد صاحب الروح من خير أو شر .

اما السقف ، فيصور لك السماء المرصعة بالنجوم ، ورحلة الشمس وحدوث الليل والنهار ، فيشبهون السماء بجسم امرأة ، تعبر الشمس فمها عند المغيب ، وتنتقل فى جسمها طوال الليل حتى تلد المرأة الشمس فى الصباح ، فتشرق ، لتملأ الدنيا بالحياة والنور .

اما وادى الملكات وهو يقع فى أقصي الجنوب ، على البر الغربى أيضا ففيه نحو ٧٠ مقبرة للملكات والاميرات والامراء ، وخصوصا الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين .

ولكن أهم هذه المقابر وأعظمها هى مقبرة الملكة « نفرتارى » زوجة الملك رمسيس الثانى ، ومقبرة الملكة « تيتى » ، ويقول علماء الآثار ان الرواسب الملحية ، تهدد هذه الآثار ، لتسرب الماء اليها من مسام الصخر ، وقد ظهرت هذه الحقيقة فعلا فى الملكات ؛ وهى تنذر بزوال النقوش والزخارف ، وتفتيت بعض الصخور ، ولذلك فهى مغلقة للترميم الآن .

وتنتشر هنا وهناك مقابر الامراء والنبلاء والكهنة ، وهى وان كانت اقل فخامة — من حيث البناء — عن مقابر الملوك ، فان دقة الفن ظاهرة واضحة فيها سنابل القمح الماثلة من تأثير الهواء ، والتفنن فى ضفائر الشعر ، وتنويع الملابس وظهور ثنياتها بكل روعة وجلال .

ولعل معبد الرامسيوم على هذه الضفة يعتبر من اكبر المعابد ، ويمتاز بأعمدته العظيمة ، وبتماثيله الفخمة ، وفيه اكبر تمثال لرمسيس الثانى ، فهو يزن حوالى الف طن ، ولكنه ينتظر الترميم .

وقيمة معبد الرامسيوم ، تنبع من الوثائق الاثرية التى وجدت فيه ، وهى مكتوبة على أوراق البردى ، وقام بدراستها الاثرى « بول شمذرز » واثبت انها مجموعة رسائل من قلعة « سمنة » وغيرها من الحصون (عام ١٨٤٤) ق . م ، وكانت موجهة الى موظف كبير فى العاصمة المصرية « طيبة » وتوضح تلك الرسائل الاعمال اليومية التى كانت تجرى فى هذه القلاع الفرعونية المقامة فى النوبة ، فهى تتحدث عن تحركات القبائل والبدو فى الصحراء ، والقبض على المشبوهين والتحقيق معهم اى انها صورة دقيقة للمخابرات العسكرية فى تلك المراكز .

وفى مرحلة أقرب من مراحل التاريخ الحضارى ، وعلى طبقة من طبقاته أحدث ، تنتشر آثار البطالسة ، على طول الطريق من الاقصر الى اسوان ، وهى امتداد لروعة الفن الفرعونى ، وتقوم هذه المعابد فى اسنا ، وادفو ، وكوم امبو ، ولعل معبد ادفو يمتاز بجمال صنعه وكبر ردهاته ، وارتفاع اعمدته ، وهو لايزال محافظا على هيكله العام سليما وقد اقيم لعبادة الاله حوريس ، فى البر الغربى كما اقام البطالمة معبد « دندرة » شمال الاقصر لعبادة الالهة « حاتور » ، اما أجمل هذه المعابد واروعها فهو معبد أوزوريس المقام على الجزيرة المقدسة « فيلة » عند خزان اسوان التى تغمرها مياه النيل فى اكثر أيام السنة ، ويشاهد هذا المعبد عند ما ينخفض منسوب المياه ، كأن المياه غلالات تحميه من أعين الشمس .. والمتفرجين .

فاذا جلست بعد هذه الرحلة الطويلة مع اقدم حضارة .. فى حياة بناتها ومعابدهم ، وفى موتهم ومقابرهم . لتغمض عينيك فى ردهة احد المعابد وانت تستريح ، فسرح بك الخيال الذى يزوده التفاعل الانسانى مع هذه الحضارة بأجنحة قوية وجبارة .. فانك لابد أن تذكر بما شاهدته كيف أن اكثر الفاتحين من رومان وفرس وغيرهم كانوا يلجئون من اجل تثبيت دعائم حكمهم فى مصر الى محاولة مغازلة شعبها ببناء الهياكل والمعابد لآلهة هذا الشعب ، وباعلان الايمان بهذه الآلهة ، وممارسة طقوس عبادتها .

فتتذكر ، واجنحة الخيال تنقلك من الماضي الى الحاضر — كيف أن

نابليون نفسه ، حاول أن يلجأ للأسلوب ذاته ، وتكاد تصبح من سير الحضارة والتاريخ — فى العصور الحديثة ..

وفى فندق الاقصر ، بعد الرحلة الطويلة العميقة الفنية ، فى صحبة التاريخ ، فى أمسه السعيد البعيد .. وقبل التوجه الى أسوان ، للوقوف مع التاريخ ، فى يومه المجيد ، وغده المنشود ، كنت أفكر ، وأذكر آثار الحضارات القديمة التاريخية المجيدة ، التى قامت فى بلدان الوطن العربى ، وتقوم لتحكى قصتها فيما بين النهرين وبلاد الشام ، وفى الجزيرة العربية ، وشمالى افريقية العربى .. فأذكر بابل ، وتدمر ، واذكر بعلبك والبتراء ، واذكر مأرب ، فأحاول محاولة موضوعية أن اتبين مدى الحق والصدق فى التيارات والدعوات .. التى تحاول أن ترتكز الى هذه الحضارات القديمة التاريخية المجيدة ، التى قامت فى بلدان الوطن العربى .. فتجعل منها — خلافا لمنطق الحضارة والتاريخ ، وخلافا لارادة الحياة والاحياء — سببا لانكار وحدة الأمة العربية وقوميتها ، وللتنكر لمنطق هذه الوحدة القومية ، واساسا لدعوات شعوبية عرقية .. لاقومية، تجسم ذلك الانكار وهذا التنكر .

وان اتبين ايضا مدى العلمية والجدوى ، فى التيارات والدعوات ، التى تحاول فى تأكيد مفهوم عرقى ، لمقومات الأمة العربية وقوميتها ، ان تضع هذه الأمة وقوميتها فى موضع المتنكر لتلك الحضارات ، الذى يود لو مسحها وانكرها ، وان تقيم وجود هذه الأمة وقوميتها على اساس من العرقية ، أو امتياز « العرق العربى » واذا بها أيضا تتحول الى دعوة شعوبية عرقية عربية هى أيضا غير قومية ولا عربية .

ولم اجد « مخلصة » فى الموقفين اللذين يتسمان برد الفعل المتبادل الا نوعا من « الشوفينية » والا ظلما للحقيقة والتاريخ ، وتحديا للحياة ، وجهلا أو تجاهلا بمقومات الامم وقومياتها العلمية والتاريخية .. فى نشوئها ونموها وتطورها .

ان المركب التاريخى الحضارى ، الذى انصهرت فيه بالفتح العربى الاسلامى ، ومنذ قرونه الطويلة ، الشعوب والحضارات ، التى كانت قائمة موجودة قبل ذلك تتفاعل فى بلاد هذا الوطن .. هو الأمة العربية ، وقوميته هى قوميتها !

ان شعوب تلك البلاد هى عناصر انصهرت لتكون المركب البشرى القائم اليوم امة عربية واحدة .

ولا يقلل من حقيقة وجود هذه الامة ورسوخه ، أن يحاول البعض انكار هذه الحقيقة برغم وجود « أصول » أو « عناصر » تكون هـذا المركب .. فأين هى الأمة التى تكون عنصرا عرقيا صافيا ، نشأ وتطور ونما عبر التاريخ ، دون امتزاج وتفاعل كأنه يقيم حوله سورا مقفلا ؟!

وانه لا يزيد حقيقة وجود الأمة العربية رسوخا وقوة أيضا ، أن يحاول البعض الآخر انكار هذه العناصر التاريخية ، والزعم بأن الأمة العربية هى « العنصر أو العرق العربى » وانما هذا الموقف يضعف الامة العربية ويمزق وحدتها القومية .

وحضارات هذا الشعب ، هى روافد حضارية انصـهرت ، لتصبح بالحضارة العربية الاسلامية ، التيار الحضارى الزاخر ، الذى يستقر فى طابع حضارى وتكوين نفسي .. قومى عربى .. لا يؤثر فى حقيقة وجوده ورسوخه أن يحاول البعض انكار هذه الحقيقة برغم وجود « روافد » متعددة التقت فى هذا التيار ، فأين هى الحضارة القومية التى ليست كذلك ؟!

انك عند ما تسير مع الاحياء ، مع الناس .. فى الريف تجد الجواب على كل من الموقفين :

ولست أزعم اننى اقدم دراسة عن الحياة العقلية والروحية للريف فى الصعيد .. ولكن الذى يبدو أصرح من كل دراسة ، وأفصـح من كل تحليل .. انك مع هؤلاء الناس تجد « العروبة » بكل مقوماتها .. من لغة وتراث .. وتكوين نفسي ، وطابع حضارى .

ولقد كانت فرصة طيبة أن نلتقى فى هذه الرحلة مع أبناء الصعيد فى مدنه ، التى مررنا بها وقضينا فى كل منهـا بعض الوقت .. من بنى سويف ، الى المنيا الى أسيوط ، الى سوهاج الى قنا الى الاقصر .. واخيرا الى اسوان .

وعلى الطريق الطويل — وكله عبد تعبيدا جيدا من الدرجة الأولى الا مسافة تقارب ٢٠٠ كم لا يزال العمل سـائرا فى تعبيدها ، تبدأ قبل قناطر نجع حمادى بقليل ، وتتوزع ما بين هذه المنطقة ، وأدفو على بعد ١١٠ كم شمال اسوان وعلى الطريق الطويل أتيحت لنا الفرصة الطيبة بشكل اكثر دلالة وأكبر اثرا فى النفس ، ونحن نتحدث على الطبيعة مع كثير من « الفلاحين » الذين كنا نصادفهم فى الطريق ، فنغتنم فرصة قبول أحدهم دعوتنا ليأخذ مكانه معنا فى السيارة ، فنتجاذب معه أطراف الحديث

حديثا حرا صادقا رحب الآفاق وهناك فلاحون التقينا بمجموعات منهم مرات عدة ، ونحن ننطلق الى الحقول الخضراء الممتدة على النيل ، فنلتقى بهم فى احضان حقولهم ، وعلى سجيتهم الأصيلة ، وفى خلق اصيل يرفضون ثمنا « لحاجة أو خدمة » قائلين السنا عربا !؟

واقسم غير حانثة .. انه يكفى لكل منصف موضوعى غير متحيز يقضي وقتا قصيرا ، كالوقت الذى اتيح لنا فيه ان يتفاعل مع هؤلاء الناس الطيبين ، ويخرج مقتنعا اقتناعا لايهتز ، ولا تعبث به « محاولات » بعض المثقفين ، الذين يشككون فى القومية العربية ممن نصادفهم فى حلقات الجدل والحوار ، فى مقاهى العواصم وانديتها .. حول الحقائق التالية :

اولا — ان الحديث عن اى فروق واى تباين ، فى مقومات الحياة الاجتماعية المادية والعقلية والروحية ، يزعم البعض انها تقوم بين شعوب الأمة العربية ، فى اجزاء وطنها الكبير ، فتقوم بسببها لكل شعب منها شخصية خاصة ، ومصالح خاصة ، وواقع خاص ، سواء سميت اقليمية او وطنية ، انما هو حديث مصطنع غير علمى .

ذلك ان الاكثرية الساحقة من كل شعب عربى ، فى كل بلد عربى تقريبا ، هى قطاع الريف ، وهو قطاع الفلاحين ، وليس بين هذا القطاع فى البلاد العربية المختلفة اى تباين يذكر ، فى مقومات حياته المادية والروحية والعقلية حتى ان التباين بين واقع هذا القطاع الذى يكون الاكثرية الساحقة من الأمة العربية ومن كل شعب فيها ، وبين الفئات والطبقات البرجوازية المقيمة فى العواصم الكبيرة — دع عنك طبقة الاقطاعيين والراسماليين — فى البلد العربى الواحد ، هى اكبر بكثير من التباينات والفروق ، بين قطاع قوى الشعب العاملة فى هذا البلد واى بلد عربى آخر !

ان الوحدة القومية للأمة العربية ، القائمة بمقومات الوحدة العربية الحية الحقيقية ، لقوى الأمة العربية العاملة ، هى القاعدة الأساسية والحقيقية والأصيلة للأمة العربية ، فى وحدتها القومية ووحدة هدفها .

ان الفروق الحية فى حقائق الحياة المادية والروحية والعقلية بين قطاع الفلاحين فى قرى الصعيد المصرى ، وقرى الريف السورى أو الفلسطينى او الاردنى — اقل بكثير — ان وجدت — من الفروق القائمة بين هذه الحياة فى هذا الريف كله من جهة ، وبينها كماتقوم فى القاهرة ودمشق وعمان مثلا .

ثانيا — ان معانى الوعى التحررى .. القومى الوحدوى .. والتقدمى الاشتراكى ، وان الآثار المادية والمعنوية « للثورة » تبدو فى حياة هؤلاء الناس ونفوسهم ، على مستوى ونطاق ، يؤكدان معا أصالة هذه القوى الاجتماعية العاملة فى الأمة العربية ، كما يؤكدان الأهمية التاريخية .. لانفتاح آفاق الحياة الرحبة ، امامهم ، ليأخذوا دورهم فى الثورة العربية الشاملة ، ويقدموا لها من الطلائع والقيادات ، ما هم قادرون فعلا على تزويدها به ..

واذا كنت انقل بتركيز دقيق مضمون الحديث الذى دار بيننا وبين الفلاح « عبد الكريم » الذى رافقنا من قريته الى أسوان مسافة ٤٠ كم ، فانما اقدم نموذجا لا اختاره بدافع الرغبة فى تأكيد ما اقول ، وانما لأن عبد الكريم بحكم المدة التى قضيناها واياه ، يقدم صورة نموذجية عن آراء هذا القطاع ، فى جميع المسائل التى جاذبنا أطراف الحديث فيها .

كان لقاؤنا مع عبد الكريم عندما وقفنا على الطريق فى قرية من قرى الصعيد نشرب ونغتسل من صنبور الماء القائم على قاعدة من الاسمنت ، والتف ثلاثة من الصغار حول السيارة يتحدثون مع أطفالنا ، لانهم من اعمارهم ومن مراحلهم المدرسية ، وطال بنا الوقوف كما يبدو ونحن نرقب بلذة حديثا لم نتدخل فيه كان يدور بين الطلاب حول السد العالى ، واذا برجل يتقدم نحونا ، يحاول ابعاد الصبية ظنا منه أنهم ازعجونا بالحديث ، وعرفنا منه انه والدهم ، وكان سرورنا كبيرا عندما رافقنا بقية الرحلة الى اسوان .. فقد كان ينوى الذهاب اليها لانجاز بعض أعماله .

شرحنا له ملخص الحديث الذى كان دائرا بين الاطفال ، وعلمنا منه انه فلاح يملك قطعة من الارض تبلغ مساحتها حوالى ثلاثة أفدنة .

وسألناه بدون التواء وبصراحة .. ماذا فعلت لكم ثورة ٢٣ يوليو ، وماذا استفدتم منها ، وكان الجواب عميقا فى بساطته ودلالته قال :

« الماء الذى وقفتم بجانبه ، قبل ان تمد الثورة أنابيبه الى القرية ، كانت نساؤنا يحملن « البلاليص » الى مسافة تستغرق ساعة ونصف ساعة ذهابا وايابا ، لاحضاره من النيل رأسا .

والطريق المعبد الذى نسير عليه الآن ، كان قبل أن تنشئه الثورة أرضا من الرمال تسفوها الرياح ، فى وجوهنا وأعيننا .

وانظر الى تلك البناية الى يمينك .. انها مدرسة لبناتنا ، بعد أن

اقيمت المدرسة لأبنائنا ، ولم يكن عندنا قبل الثورة مدرسة لبنين أو بنات .

ونحن اليوم ننتظر ان تصل الكهربا الى البلد من السد العالى ، ثم لم يلبث ان اشار الى بناية حديثة تقوم على الطريق قائلا : وهذه الوحدة، فيها صحة ، وفيها جمعية تعاونية ، وفيها ارشاد زراعى ، وكنا قد أشرفنا على الخروج من منطقة القرية عندما قال عبد الكريم ، وكل معانى الجد مرتسمة على محياه الاسمر « هوه يابيه الجماعة الانجليز وفاروق وبهوات مصر » كانوا شاعرين بوجودنا ، ما احنا الثورة هى اللى اشعرتنا بوجودنا وده أهم حاجة يابيه ربنا يطول عمره الريس « جمال عبد الناصر » وبادر صغيرنا جمال ليقول لعبد الكريم ، شكرا ياعم ما أنا اسمى « جمال عبد الناصر » كمان ..

أما رد عبد الكريم على سؤالنا اياه عن الاشتراكية ، فكان ايضا فى بساطته ووضوحه حاسما يبعث الثقة فى النفس قال :

« الاشتراكية يابيه ما هى قالها عبد الناصر ، ترجع بلدنا لينا ونبنيها بأيدينا نأخذها من الانجليز ، ومن الملك ومن البشوات والاقطاعيين واهه رجعت لينا ، واديحنا بنيناها » !

أما تجاه مسألة الوحدة العربية ، فكانت آراء عبد الكريم كما يلى :

« طبعا احنا عاوزين وحدة ، ولازم ، ماهه كلنا عرب ، ولما نتوحد نبقى أقوى ، ربنا ذاته يرضي عنا ، واحنا والله فرحنا قوى يوم ما صارت الوحدة مع سورية وزعلنا قوى يوم مؤامرة الانفصال .

وحتى هذه اللحظة ، لم يكن عبد الكريم قد سألنا من اى بلد نحن ؟ ولكنه هنا ، وفى لهجة الريفى ، الذى يريد أن يقول شيئا ، فيتردد ، خشية أن يسيء الى ضيفه قال عبد الكريم : البيه لهجته شامية من اى بلد يا ترى من سورية ؟ ولاحظت من لهجة عبد الكريم انه كان يرغب فى أن يضيف شيئا حول سورية ، اقدر أنه شيء من العتب .

وعندما أجابه عبد الله .. نحن فلسطينيون ، كان رد الفعل الذى بدا فى قسمات وجهه وفى ناظريه ، مزيجا من العزم والمرارة ، فقال ، والله اذا لم ترجع فلسطين للعرب ونقضي على هذه الدولة المعتدية ، فسنبقى مقصرين أمام الله والوطن ، ولكن ان شاء الله ، الرئيس جمال ، لا يمكن أن يرضي ببقاء هذا العدوان على ارضنا وشرفنا ، ونحن الآن اقوياء ، وها هو جيشنا يدافع عن ثورة اليمن ، وسينتصر على الانجليز وجماعة الامام الرجعيين ، وكل الذين يعاونونهم .

ويبدو أن عبد الكريم وجد الفرصة ليضيف وهو يخاطبنى وكان قد قال له عبد الله اننى من سورية ، بس ياست لو الوحدة باقية كانت معركة فلسطين بقت اقرب ، لكن ان شاء الله الوحدة بترجع ، وفلسطين بترجع ، وربنا يساعد الرئيس جمال وينصره ، وينصر معاه كل العرب .

وكانت هذه هى نهاية حديث عبد الكريم تقريبا ، فقد كنا قد اشرفنا على اسوان ، وقبل أن يودعنا فى مدخل المدينة قال : انظر يا بيه هذه أسوان اللى انت شايفهـا بعينك ، ماكانتش حاجة ، كانت أيام الانجليز والملك ، بلد صغيرة وفقيرة . اللى يزعلوا منه يحولوه عليها .

« انتم حاتشوفوا السد العالى ، ولا يفوتكم تشوفوا كمان ، مصانع كيما ، وتتفرجوا على منجم الحديد « احنا نبنى بلدنا » .

وودعنا عبد الكريم ومضي فى رعاية الله .

وفى أسوان .. شهدنا المدينة النابضة بالحيـاة .. الجديدة ، زاخرة بالحركة والاحياء المتحركين ، وبما تقيمه الحركة والاحياء المتحركون، من ألوان الثورة والعمران والتقدم .

فشهدنا المدينة التى كانت — كما لايزال اهلها يذكرون ويقولون — منفى للمغضوب عليهم ، الذين يعاقبهم الاستعمار أو القصر وحكوماته .. بالابعاد الى حرها المحرق ، وحياتها الجافة ، وذكرنا ونحن نستمع الى هذا .. منافى وسـجونا ، لا تزال قائمة هنا وهناك فى كثير من أجزاء الوطن العربى ننتظر أن تتيح لها الثورة العربية من التغيير والتقـدم ما أتاحته لاسوان .

وشهدنا المدينة التى كانت — كما لا يزال العاملون فى فندقها الكبير كتراكت القديم يذكرون ويقولون — مشتى يؤمه فى بعض أشهر الشتاء ، بعض السائحين الذين تجتذبهم اشعة الشمس الدافئة ، والآثار القديمة الرائعة .. والهدوء النابع من الموت ثم الرومانس الحـالم المرتبط فى أذهانهم ، بصورة الشرق عموما ، والوطن العربى خصوصا : جمل ونخلة ، وراع ينفخ فى مزمار ..

فشهدنا الثورة ناطقة بالتغيير والتحول الذى يصيب الحياة ويحرك الأحياء ..

هذه مصانع كيما الجبارة ..
وهذه مصانع تراب الحديد ..

وهذه الحياة الجديدة .. بالمصانع والسدود ، ان افتقد بهـــا « السائح الخواجا » الرومانس الحالم .. جملا ونخلة وراعيا ينفخ فى مزمار .. فانها فى سحر القوة والكرامة .. والخــــير والنور .. تقدم للملايين من العمال والفلاحين رومانسا جديدا .. وهكذا .

بالسفر الطويل مع النيل الخالد من القاهرة الى اسوان سواء فى وجهها التاريخى الحضارى القديم او فى وجهها الثورى الحديث الحى كنا نلمس ونعيش الحقيقة والحياة كلها .

وفوق طبقات الحضارة التى ترسو ، اساسا ماديا ، وتراثيا ثابتا ، يذهب الى أعماق الأرض ، وفى بطون التاريخ .. تقوم الحياة الجديدة فى الوادى وفوق اديم الارض الذى يتكون من رفاة الاجــــــداد ، وفلذات الاكباد .. فينطلق الاحياء طلائع عاملة لاقامة هذه الحياة الجديدة فيه .

فتشهد الحياة والاحياء .. عروبة وثورة وحرية وتقدما ، اشتراكية وبناء ، وتشهد طبقات هذا الشـــعب العربى التى تكون قواه الاجتماعية العاملة ، وقد تحررت بالثورة اردااتها ، ونفضت بالتحرر كل رمادها الذى غطوا به وجه العروبة الأصيل فيها ، فاذا بهـــا بالارادة الحرة وبالوجه العربى الاصيل .. وباشتراكية العدل والكفاية تعيد بالثورة صنع الحياة فى هذا الوادى لتجعل منه ما يوجبه التاريخ والطبيعة .. نواة الوحدة العربية الشاملة ، وقاعدة الثورة العربية الواحدة ، وموطن الاشتراكية العربية الصاعدة .. ارض امل وعمل وبناء .

وبهذه الرحلة الطويلة مع النيل الخالد من القاهرة الى اسوان سواء فى وجهها التاريخى الحضارى القديم او فى وجهها الثورى الحديث الحى تأخذ العبارات التالية من الميثاق معانيهـــا ومدلولاتها المتكاملة « على الطبيعة ومنها » .

« منذ زمن بعيد فى الماضي السحيق لم تكن هناك ســـدود بين بلاد المنطقة التى تعيش فيها الأمة العربية الآن .

وكانت تيارات التاريخ التى تهب عليها واحدة ، كما كانت مساهمتها الايجابية فى التأثير على هذا التاريخ مشتركة .

ومصر بالذات تسلك فى حياتها منهج عزلة عن المنطقة المحيطة بها ، بل كانت دائما بالوعى ، وباللاوعى فى بعض الأحيان ، تؤثر فيمـــا حولها وتتأثر به كما يتفاعل الجزء مع الكل ، وتلك حقيقة ثابتة تظهرها دراســـة

التاريخ الفرعونى صانع الحضارة المصرية والانسانية الأولى ، كما تؤكدها بعد ذلك وقائع عصور السيطرة الرومانية والاغريقية .

وكان الفتح الاسلامى نورا أبرز هذه الحقيقة واوضح معالمها ، وصنع لها ثوبا جديدا من الفكر والوجدان الروحى .

وفى اطار التاريخ الاسلامى ، وعلى هدى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم قام الشعب المصرى بأعظم الادوار دفاعا عن الحضارة الانسانية .

وقبل ان يطمس ظلام الغزو العثمانى المنطقة بأسرها كان شعب مصر قد تحمل ببسالة منقطعة النظير مسئوليات حاسمة لصالح المنطقة كلها .

كان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية فى صد أولى موجات الاستعمار الاوربى التى جاءت متسترة وراء صليب المسيح ، وهى أبعد ما تكون عن دعوة هذا المعلم العظيم .

وكان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية فى رد غزوات التتر الذين اجتاحوا سهول الشرق ، واجتازوا جباله حاملين الخراب معهم والدمار .

ثم كان تحملها المسئولية الأدبية فى حفظ التراث الحضارى العربى وذخائره الحافلة ، فجعلت من ازهره الشريف حصنا للمقاومة ضد عوامل الضعف والتفتت التى فرضتها الخلافة العثمانية استعمارا ورجعية باسم الدين ، والدين منها براء .

وليس مصادفة ان هذه الزهور المتفتحة على ضفاف وادى النيل كانت بمثابة الومضات اللامعة التى استرعت انظار العناصر المتطلعة الى التقدم فى المنطقة كلها نحو مصر ، وجعلت منها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر منبرا للفكر العربى كله ومسرحا لفنونه ، وملتقى لكل الثوار العرب من وراء الحدود المصطنعة والموهومة .

ان وادى النيل لم تنقطع فيه أصوات النداءات الثورية فى مواجهة هذا الارهاب المتحكم الذى تسنده قوى الاحتلال الاجنبى والمصالح الدولية الاستعمارية .

ان أصداء المدافع التى ضربت الاسكندرية واصوات المعركة الباسلة التى طعنت من الخلف فى التل الكبير لم تكد تخفت حتى انطلقت أصوات

جديدة تعبر عن ارادة الحياة التى لا تموت لهذا الشعب الباسل ، كما تعبر عن حركة اليقظة التى لم تقهرها المصائب والمصاعب .

ان ثورة الشعب المصرى عام ١٩١٩ تستحق الدراسة الطويلة ، فان الأسباب التى ادت الى نشلها هى نفس الاسباب التى حركت حوافز الثورة فى عام ١٩٥٢ .

ان هناك ثلاثة اسباب واضحة ادت الى فشل هذه الثورة ولابد من تقويمها فى هذه المرحلة تقويما أمينا منصفا :

اولا — ان القيادات الثورية اغفلت اغفالا يكاد يكون تاما مطالب التغيير الاجتماعى ، على أن تبرير ذلك واضح فى طبيعة المرحلة التاريخية التى جعلت من طبقة ملاك الاراضي أساسا للأحزاب السياسية التى تصدت لقيادة الثورة .

ومع أن اندفاع الشعب الى الثورة كان واضحا فى مفهوم الاجتماعيين الا أن قيادات الثورة لم تتنبه لذلك الوعى ، حتى لقد ساد تحليل خاطىء فى الطرف الذى ردده بعض المؤرخين مؤداه أن الشعب المصرى ينفرد عن بقية شعوب العالم بأنه لايثور الا فى حالة الرخاء ، واستدلوا على ذلك بأن الثورة حدثت فى ظروف الرخاء الذى صاحب ارتفاع أسعار القطن فى اعقاب انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وهذا استدلال سطحى ، لان هذا الرخاء كان محصورا فى طبقة ملاك الاراضي وطبقة التجار والمصدرين الاجانب الذين افادوا من ارتفاع الاسعار ، وبذلك زاد التناقض بينهم وبين الكادحين من الفلاحين ، الذين كانوا يروون حقول القطن بعرقهم ودمائهم دون أن تتغير أحوالهم بارتفاع أسعاره ، وكان هذا الحرمان فى القاعدة بتناقضه مع الرخاء فى القمة من أسباب الاحتكاك الذى أشعل شرارة الثورة .

ان المحرومين كانوا هم وقود الثورة وضحاياها .

ولكن القيادات التى تصدت فى مقدمة الموجة الثورية عام ١٩١٩ باغفالها للجوانب الاجتماعية من محركات الانفجار الثورى ، لم تستطع أن تتبين بوضوح أن الثورة لاتحقق غاياتها ازاء الشعب الا اذا مدت اندفاعها الى ما بعد المواجهة السياسية الظاهرة من طلب الاستقلال ، ووصلت الى أعماق المشكلة الاقتصادية والاجتماعية .

ولقد كانت الدعوة الى تمصير بعض أوجه النشاط المالى هى قصارى الجهد فى ذلك الوقت ، فى حين أن الدعوة الى اعادة توزيع

الثروة الوطنية أصلا وأساسا كانت هى المطلب الحيوى الذى يتحتم البدء فيه دون تأخير أو ابطاء .

ثانيا ـــ ان القيادات الثورية فى ذلك الوقت لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء ، وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية ، ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أنه ليس هناك صدام على الاطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية .

لقد فشلت هذه القيادات فى أن تتعلم التاريخ ؛ وفشلت أيضا فى أن تتعلم من عدوها الذى تحاربه ، والذى كان يعامل الأمة العربية كلها على اختلاف شعوبها طبقا لمخطط واحد .

ومن هنا لم تتنبه القيادات الثورية الى خطورة وعد بلفور الذى انشأ اسرائيل لتكون فاصلا يمزق الارض العربية وقاعدة لتهديدها .

وبهذا الفشل حرم النضال العربى فى ساعة من اخطر ساعات الأزمة من الطاقة الثورية المصرية ، وتمكنت القوى الاستعمارية من أن تتعامل مع أمة ممزقة الاوصال مفتتة الجهد .

واختصت ادارة الهند البريطانية بالتعامل مع شبه الجزيرة العربية ومع العراق وانفردت فرنسا بسورية ولبنان .

بل لقد وصل الهوان بالامة العربية فى ذلك الوقت الى حد أن جواسيس الاستعمار تصدروا قيادة حركات ثورية عربية ؛ وكانت بأمرهم ومشورتهم تقام العروش للدين خانوا النضال العربى ، وانحرفوا عن أهدافه .

كل هذا والحركة الثورية الوطنية فى مصر تتصور أن هذه الاحداث لا تعنيها وأنها لاترتبط مصيرها بكل هذه التطورات الخطيرة .

ثالثا ـــ ان القيادات الثورية لم تستطع أن تلائم بين أساليب نضالها وبين الاساليب التى واجه الاستعمار بها ثورات الشعوب فى ذلك الوقت ذلك ان الاستعمار اكتشف أن القوة العسكرية تزيد ثورات الشعوب اشتعالا ، ومن ثم انتقل من السيف الى الخديعة ، وبين الجوهر الحقيقى ، وكان منطق الاوضاع الطبقية يزين لها هذا الخلط .

ان الاستعمار فى هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه وسلب مضمونه ، ومنح من الحرية شعارها ، واغتصب حقيقتها .

الفصل الثالث

يا بناة السد العالى

« لا بد للأمم المتخلفة وهى تعيـــد بالثورة صـــنع حياتها ٠٠ أن تغالب الزمن ، فتنتصر عليـــه ٠٠ وتختصر مراحله » ٠

« جمال عبد الناصر »

اللوحة الرمز

يا بناة السد العالي

« يا بناة السد العالى .. بقى على تحويل مجرى النيل الخالد .. كذا يوما » .

هذا النداء :

نداء الحياة الى الأحياء ، وشوق الارض الى الماء. .وطلب الانسان للسعادة بالكفاية ، وللحرية والضياء .

نداء الثورة الى الرجال ، الى العزيمة والارادة ، بتعبئة كل معانى الرجولة بالمسئولية والصبر والفداء .

نداء التخطيط والتوقيت والتنسيق ، التى تعيد بالثورة صنع الحياة ، وتتحدى بالعزم والعلم قوى الطبيعة ، وترفض فى ادراك « لقيمة الزمن » أن تعترف فيه بايل ونهار .

هو النداء .. الذى يطالعك عاليا وعميقا ، جادا وقويا ، عند ما تبلغ فى « صعودك » نحو السد العالى .. الموقع .

وفى الموقع .. نصبح فى هذا الصعود على القمة .

قمة تاريخ من المعاناة والامل ، ومن الكفاح والعمل ، تعيش فيها اللحظات الخالدة والملهمة التى تمنح حياة الانسان ـ الذى خبر لحظات الوقوف الانسانى الحى فى القمم ـ أعمق معانى الحياة ومبرراتها ، وأكبر قوى الدفع عبر تيارها ، وهو التيار الذى يكاد يصبح بالملل الرتيب ـ لولا لحظات القمم والنضال من أجلها ـ جمودا يقترب من الموت .

وقمة جبل .. قدته الطبيعة راسخا ، من أصلب صخورها .. من

الجرانيت الأسود ، فقام فى مكانه من البر الشرقى — الضفة الشرقية من مجرى النيل الخالد — وعلى بعد سبعة كيلومترات الى الجنوب من خزان اسوان ، يشهد فى صمت منذ آلاف السنين انسياب الماء فى شريان الحياة العريض ، مبدرا بالخير والحضارة ، فى نقطة من أضيق نقاط مجراه .

واذا كان جبل الجرانيت الأسود ، فى صمته التاريخى الطويل ، قد انكر الزمن وكاد ينساه ، فلقد اصبح هذا الجبل فجأة وبالارادة الثورية منذ ٩ من فبراير سنة ١٩٦٠ يستفيق على صوت انفجار انتصار الحياة والامل ليعى الزمن ، ويسجل فى نفسه الصلدة الاحساس بسيرة الايام ويخضع فى ترحاب حار ، وبسعادة دافئة لمنطق الزمن ، وحاجة الحياة مع التاريخ للتقدم ، فاذا به — فى وعيه واحساسه وخضوعه — يصبح كأنه « ساعة صخرية » يسجل بمدى امتداد « الحفر » فى قلبه ، طولا وعرضا وعمقا ، التقدم نحو الهدف .. يسجله بالايام ، ثم يسارع ليسجله بالساعات .

فاذا أزفت الساعة وانشق الجبل ، واذن الانسان العربى بيد عبد الناصر لنهره الخالد أن يتحول فى ١٥ من مايو الى مجراه المجيد والجديد ، اسرع نبض التسجيل ليواكب فى سرعته نبضات الامل التى تملأ ارضنا العربية « بأنشودة النصر فى ١٥ مايو » .

انها الأنشودة التى اكاد أستمع تاريخنا الثورى ، يضع لها مقاطعها ويجعل افتتاحها ، لحن القسم باستعادة الوطن وختامها لحن العودة الى سهوله ورباه ، وبينهما لحن الزحف العظيم ، معلنا أن المعانى التى حملها ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ! قد انقلبت بالثورة الى نقيضها فى ١٥ مايو سنة ١٩٦٤ .

على تلك القمة .. قمة الجبل التى أصبحت بالنصر فى السد قمة من قمم النضال العربى المنتصر .

وفى جو حى فريد ..

يجمع الى رائحة طمى النيل الرطب ، رائحة البارود الساخن ، ويجمع الى صليل الفولاذ ، وهو يصطدم بالجرانيت ، طنين المحركات وهى تدير العمالقة من الآلات .

ويجمع الى وهج الشمس ، سحبا من غبار الرمال ، وذرات الجرانيت

ودخان المحروقات .. تكاد تحجب اشعة الشمس المشرقة .. المحرقة ، تحس بكل جارحة انسائية .

رائحة العرق الشريف ينضح من السواعد الفتية التى شمرت عزما وجدا ، ومن الجباه السمر ، التى أشرقت عملا وكدا .

واصوات الانسان الثائر الحر العامل تعلو على صليل الفولاذ ، وطنين المحركات .

واشعة العزم المؤمن تبرق فى العيون السود تصميما وايمانا وحزما ، لاتتطاول السحب لحجبها .

فنشهد ونحس .. البناة والبناء .. حقيقة انسانية حية منتجة !

وفى هذا الجو الانسانى ، الحى بالعمل ، النابض بالعزم ، المفعم بالأمل ، تفرض اللوحة نفسها عليك ، انها اللوحة التى ترتفع « نداء وشعارا وتوقيتا » .. وقد كتب عليها :

« يا بناة السد العالى .. بقى على تحويل مجرى النيل الخالد كذا يوما » فاذا رأيت اللوحة بعد ذلك وجدتها كلما اقترب ١٥ مايو تقول :

« يا بناة السد العالى ... بقى على تحويل مجرى النيل الخالد (كذا) ساعة » وتخاطبك اللوحة بما ترمز اليه من نداء وشعار وتوقيت .. أن ارفع رأسك ، وركز ناظريك وأرهف احساسك ، انك بالموقع المأمول أسوان .

وكم هى غنية وعميقة .. قومية وانسانية .. الاحاسيس والانفعالات ، والمعانى والافكار ، وكم هى رحبة وواسعة ، بعيدة فى الماضي ذاهبة فى الحاضر ، ممتدة فى المستقبل .. الآفاق والابعاد التى تنبع وتنمو ، وتتفجر فى النفس ، اثناء اللحظات التى يقفها أحدنا مرفوع الراس ، مرهف الحس .. وهو يركز على اللوحة ناظريه .

أتراه من معانى الأنانية الانسانية أم تراه من معانى الاعتزاز القومى أن يكون أول معنى تبلور فى ذهنى ، بالوقفة أمام اللوحة ، هو أنى تمنيت ان كون من بناة السد ، لست ادرى !؟

ولكننى ادرى أن هذا الشعور والمعنى ، لابد أن يخالجا كل نفس عربية أصيلة تقف بالحق والنصر مرفوعة الراس ، وبالأمل والثقة مرهفة الحس ، اتركز على اللوحة البصر ، وتعمل فى الرمز القائم بها البصيرة ،

وعلى القمة تقول : ليتنى كنت من هؤلاء البناة .. بناة السد العالى .

ثم اننى أكاد أؤكد ايضا ، أنه يرافق ذلك الشعور والمعنى اللذين ينطلقان همسة تمن ، صدى الامنية الهامسة الذى يهتف به السد عاليا مخاطبا كل عربى اصيل ليقول له :

انك يا اخى بوحدة النضال العربى ، وقد اسهمت فى البناء ، فأنت من بناته !!

وانك يا اخى بالاشتراكية العربية تملك كل ثروات الوطن ، فأنت من أصحابه .

ان السد العالى لينطق معلنا .. انا فى معركتى ودلالاتى نصر قومى عربى ثورى ، وأنا فى قيامى وآثارى قلعة من قلاع التقدم اقوم بالثورة العربية ولها قلعة فى أرضها ، أننى فى ملكيتى شأن كل ثورة فى الوطن العربى ملك بالقومية والاشتراكية — للقوى الاجتماعية العربية العاملة فى هذا الوطن بلا حدود .

على أن هنا حقيقة — خالدة بخلود السد وبمعركة بنائه ، وشاملة بالخير والقوة اللذين يصيبان الحياة العربية بقيامه . هذه الحقيقة ، هى ان القوى الاجتماعية العربية العاملة ، وهدفها ونضالها ، وهى عميقة الامتنان للبناة ، صادقة الاعتزاز بالبناء — لمعترفة بحق تاريخى ، لا ينازع اصحابه فى أن يقول احدهم بفخار : « اننى من بناة السد العالى ، أو من أبناء بناته . »

وذلك أنه .. اذا كانت المعارك الخالدة والكبرى فى حياة الأمم ، تعطى الذين يخوضونها ، الحق فى أن يعرفوا أنفسهم بأنهم هم جنود هذه المعارك وأبناء هؤلاء الجنود ، فان معركة بناء السد العالى ، تقف بجميع المقاييس فى طليعة المعارك التى انتصرت فيها الارادة العربية الثورية ، انتصارا يؤكد هذا الحق « لبناء السد العالى » بشكل خاص ومتميز .

وفى ١٤ مايو سنة ١٩٦٤ وفى ساعة الصفر :

يقف الرئيس جمال عبد الناصر ، على مسمع من العالم ومشهد من حوله « بناة السد العالى » تحف به ملايين الأمة العربية وآمالها ، وبحضور السيد نيكيتا خروشوف رئيس وزراء الاتحاد السوفياتى ، ليلقى الحجر التذكارى فى النيل عند مجرى النهر .. معلنا ان بناة السد قد اتموا تحويل مجرى النيل الخالد .. وفقا للخطة والتوقيت ، بل قبل ذلك .

واذ ذاك تنطق اللوحة الرمز .. التى وقفت ترفع ، فى موقع السد ، نداء بقى يدوى حافزا انسانيا عميقا فى ضمائر « بناة السد » يحرك منهم العقول والقلوب والسواعد .. والاعصاب ، فترة من عمر الزمن ، امتدت — حتى ١٤ مايو سنة ١٩٦٤ ، عند ما يعلن الرئيس — باطلاق التفجير الذى تنفتح به قناة التحويل أمام الماء — انتصار الانسان على التحدى — عندئذ تهتف « اللوحة الرمز » قائلة :

« يابناة السد .. حولتم مجرى النيل الخالد .. وبقى على اتمام آخر مراحل بناء السد (كذا) يوما » .

واذ ذاك يعرف التاريخ مطمئنا أن البناء سيتم قبل موعده المحـــدد أيضا .

الفصل الرابع

البناة .. والبناء

الانسان العربى الجديد
يعيد بالبناء صنع الحياة

ان البناء والبناة فى السد العالى حقيقة حية واحدة . .البناة يقيمون باسم الحيـــاة البناء ، وبالبناء يبنى الاحياء أنفسهم. .كتائب وعى وخبرة وعزم فى المد الثورى النهرى العارم !

اذا كان غير جائز تجاه اى حادث تاريخى ضخم ، أو اى مشروع انتاجى ثورى جبار ، أن نفصل بين الانسان كصانع للأحداث والتاريخ ، وبين الأحداث نفسها ، وأن نتحدث عن البناء بمعزل عن بناته .. فان هذا الامر فى السد العالى لا يجوز اطلاقا .

فالبناة والبناء « يتوحدان » فالسد العالى فى وحدة حية تغالب الطبيعة صخرا وماء ، فتنتصر عليها وتدخل فى سباق مع الزمن ، واذا بها فى السباق تنتصر عليه ، ولكنها تغالب الطبيعة أيضا .

واذا كان « العمل » هو الصلة العادية التى تربط البناة بالبناء ، كل بناء واذا كان الانتاج بعد ذلك هو الهدف ، الذى يحرك البناة فى العمل من أجل البناء ، ويحول الثورة بالبناء ، لتصبح وسيلة لسد حاجات المجتمع واشباع هذه الحاجات ، فان الحال فى السد العالى ، بين البناة والبناء ، اكثر من هذا كله وأعمق .

« فالامل » مع العمل يربط البناة بالبناء .. أمل داعب نفس الانسان العربى أجيالا متعاقبة ، أن يرى السد حقيقة تقوم فى أرضه ، وفوق مجرى نيله .. حتى لكأن هؤلاء البناة ، انما هم يقيمون بناء اقامته جماهير الشعب قبل ذلك أمانى عزيزة وآمالا عذابا .

والانتصار البكر الى جانب الانتاج المنتظر ، يربط بين البناة والبناء من حيث يرون فى قيامه ، بأيديهم وعرقهم ، انتصارا يفوق الانتصار على الطبيعة والزمن ، الذى يتحقق بكل بناء انشائى ضخم ، لأنه انتصار على « الانسان الآخر » وهو المستعمر المستغل ، اذا جاز تسميته انسانا ، وعلى ما حاول ان يقيمه من موانع مادية وغير مادية ، فى الماضي وفى الحاضر ، أمام قيام البناء .

فالبناة والبناء فى السد العالى اذن ، حقيقة حية واحدة متكاملة بأبعادها التاريخية والانسانية ، والمادية الانتاجية ، والروحية الثورية .

وليس ثمة ادنى ريب ، فى أن الصلة بين البناة والبناء فى السد العالى ، هى صلة مركبة ، تتوحد فيها معانى صلة الجندى المنتصر بالمعركة والنصر ، وصلة الفنان بانتاجه الفنى الرائع والعزيز ، وصلة العامل بالآلة ، وصلة الفلاح بالأرض ، كل معنى من هذه المعانى تحسه وتلمسه وانت بين بناة السد فى موقع البناء .

واذا كان السد فى قيامه ، وهو يجسم انتصار الارادة الثورية العربية يؤكد الصلة القومية العربية الخاصة والمتميزة ، التى تقوم بين البناة والبناء ، فمما لا شك فيه أن اشتراك الاتحاد السوفيتى ، برجاله وخبرته وآلاته ، مع البناة فى هذا البناء ، انما هو حقيقة ، تضيف الى السمات الخاصة والمتميزة للصلة القائمة بين البناء والبناة فى السد العالى ، الوانا ودلالات انسانية ودولية أخرى ، تبقى مع التاريخ حقيقة يذكر بها البناء كل من يراه .. بالبناة .

لقد اسهم الاتحاد السوفيتى ، دولة وشعبا ، مالا وخبرة ، ورجالا ، فى بناء هذا السد ، وان هذا الاسهام ، الذى يسجله تاريخ النضال العربى ، باعمق معانى العرفان بالجميل ، ليبرز صورة حية من صور التعاون بين الدول الشيوعية ، وبين الأمم والشعوب المناضلة ضد الاستعمار والاستغلال والتخلف . وهى صورة من حيث يتحقق بها هذا التعاون على الرغم من اى اختلاف فى العقائد والنظريات والقيم والنظم ، انما تقيم العلاقات سليمة صحيحة بين جميع القوى التى تتكون منها اليوم الجبهة العالمية المكافحة ضد « الامبريالية » من اجل تحرر الشعوب وحقها فى تقرير مصيرها ، وفى السلام العالمى .

واذا كنا قد اكدنا ، بقصة النضال القومى الثورى ، التى جعلت قيام السد بالنصر الثورى ، ممكنا وكان قيامه بمنطق ضرورات الحياة واجبا ، اذا كنا بهذه القصة أكدنا فى غير مجاز أن كل عربى مناضل هو من بناة السد العالى . فان الذين نتحدث عنهم الآن من البناة ، انما هم الذين يعملون ليقيموا السد العالى فى موقعه بأسوان .

هؤلاء البناة ، ياأخى العربى .. هم فى اكثريتهم الساحقة من ابناء شعبنا العربى المصرى ، .. هم رجال :

غالبوا الطبيعة .. صخرا صلدا ، نقدوه وحفروه .

ومناخا قاسيا ، فتحملوه وتحدوه .

وغالبوا الزمن : ليلا ونهارا ، فوصلوا آناء الليل بأطراف النهار وتوقيتا مخططا محسوبا ، فاختصروا التوقيت المحسوب وسبقوه .

وغالبوا المشاكل : التى لا حصر لها ، والتى منشؤها العمل ونموه ، فوجدوا لها الحل ، ابتكارا أصيلا .

بل غالبوا مطالب الانسان .. حتى لقد استغنوا وهم الكادحون .. عن الاجازة والراحة .

ومع البناء الذى كان يكبر ، كان بناة السد العالى يكبرون .. فى العدد والمسئولية ، وفى الخبرة والكفاية ، وفى الآفاق والوعى .

اما العدد .. عدد العاملين على اختلاف انواع العمل والاعمال ، فقد نما خلال المرحلة الاولى التى تتم بتحويل مجرى النيل ، بلغ (٣٣٫٨١٦) عاملا ، بينهم (١٠٠٠) عامل تقريبا من الخبراء والمهندسين السوفيت الموزعين على قطاعات العمل ، وقد تدرج هذا العدد فى طريق النمو من حوالى ١٩٫٠٠٠ عامل فى الخطوات الاولى حتى بلغ ٢٥٠٠٠ عامل بعد ذلك ، وحتى ارتفع الى العدد المذكور آنفا .

والدلالة الكبرى « للعدد » فى بناة السد العالى وبنائه ، هو روح المسئولية الايجابية ، وكفاية التنظيم والادارة ، اللذين مكنا هذا العدد الهائل من أن يتحرك فى البناء ، كوحدة واحدة كل فئة منها عملها مرتبط بعمل الفئة الاخرى تأثرا به وتأثيرا عليه ، ولقد كان من أبرز ما يسجل بالفخر للبناة — وهذا عددهم ، وللبناء وذلك تعدد مجالاته ، وتوقف سير العمل فى كل مجال منها عليه فى المجال الآخر — ، أن مضي البناة وارتفع البناء فى نجاح تفوق على الزمن ، بل على ماقدره الخبراء للانسان العادى من وقت .. هذا مع تجسيم لروح المسئولية والزمالة ، وكفاية التنسيق التى تجلت فى هذا النجاح .

أما الخبرة والكفاية .

واما الآفاق والوعى .

واما التحول العقلى والنفسي .. الثورى الذى تحقق لبناة مع ممارسة البناء .

هذه السمات الانسانية الثورية ، التى تكون رأس مال وذخيرة للثورة

العربية الشاملة ، بل لجميع الشعوب المكافحة المتخلفة فى آسـيا وافريقية .. هما راس مال وذخيرة لا يقلان بأى حال عما تحقق بالبناء نفسه من امكانيات التقدم المادية .

فلأترك لنماذج من البناة انفسهم يعبرون عنها بأقوال او افعال سمعناها وشهدناها :

ان حفر الأنفاق الكبيرة كان يتطلب بالضرورة الفنية — فى المراحل الاولى من حفرها — أن يمارس العمال الذين يقومون بالحفر ، اعمالهم فى اوضاع يتعرضون معها لسقوط كتل الصخر فوق رءوسهم .

وكثير من أعمال السد الأخرى فى مراحله الاولى كانت تنطوى على مقدار من « المخاطرة » لايبعده اى احتراس .

ولقد استشهد فى اثناء حفر الانفاق عدد من العمال بفعل الصخور التى سقطت عليهم ، واستشهد ايضا فى اعمال السد الخطيرة الاخرى عدد آخر ، وبلغ مجموع موكب الشهداء من البناة فى السد العالى « ٢٢٧ » شهيدا .

فما الذى حدث .. ؟

يقول « سعيد » عامل النقل الذى استشهد اخ له فى اعمال الحفر : « لقد كنا نحمل الشهيد من اخواننا بناة السد بعقلية ونفسية جديدتين : الالم الانسانى لفقد الاخ يدمى قلوبنا ، ولكن الواجب الثورى .. الواجب العام .. والواجب تجاه الشهيد نفسه ، كان يشحذ فينا العزم على أداء الواجب .. ولو بالموت .

كنا عازمين على ان نبنى السد ، وكنا قد قطعنا على انفسنا عهدا ببنائه لبلدنا ولرئيسنا واولادنا .. وللعلم والتاريخ .

وها نحن كما ترون قد أوشكنا على انهاء المرحلة الاولى من بنائه »

واضاف سعيد :

« ان عاملا واحدا من بناة السد العالى لم يغادر الموقع او يهرب من اداء الواجب أمام أى خطر ، او فى أعقاب اية حادثة استشهد فيها بعض اخوانه من البناة العاملين ، لأننا كنا نبنى بلدنا . »

اما لطفى :

« سائق سيارة النقل الهائلة « الماز » فدونك ماقال وما فعل .. كان

لطفى يقود سيارته وهى تحمل ٥٠ طنا من الحجارة الضــــخمة المختلفة الاحجام ، ليلقى بها على « الغربال العجيب » الذى « يفرز » الصخور الى عدة أحجام ، يرسل كل حجم منها الى الناقلة المائية المخصصة له ، لتلقى به فى مكانه المحدود من قاع النهر وجسم السد ، واعترضت لطفى سيارة زائر يبدو انه تركها فى نقطة خاطئة من الطريق .

كان صوت بوق التنبيه الذى يصدره « لطفى » وهو مسرع بحمله الكبير .. صوتا يزداد حدة كلما اقترب من السيارة التى تعترض طريقه ، دون أن يرافق ذلك ابطاء فى السرعة .

وعلى بعد يكاد يكون مترا من السيارة المعترضة ، وبصورة مفاجئة فيها كل معانى العصبية والاحتجاج ، أوقف لطفى « الماز » المارد الذى يقوده ونزل يصرخ :

« وين الافندى اللى معطلنا بعربيته ده » .

ولم ينتظر لطفى جوابا ، وقفز الى السيارة يحركها من طريقه بعنف.

واقبل صاحب السيارة محتجا ، وهو يقول للطفى :

الا تنتظر حتى أصل فأفتح لك الطريق ؟ .

فلم يجبه لطفى واستمر يبعد السيارة من مكانها .

ولم املك نفسي عن رغبة التدخل الخبيث فى الموضوع ، واقتربت لأقول لسائق « الماز » المحتد .. انا لا أفهم ، ان دقيقة لا قيمة لها ، ثم انك تقبض مرتبك شهريا وليس أجرك بمحسوب على اســــاس عدد « النقلات » فلماذا كل هذه العصبية ؟

وكان جواب لطفى مفحما بقدر ماكان مفرحا ..

قال .. وهو يتحرك ليمتطى سيارته الجبارة ويستأنف العمل .. « ياست هانم الدقيقة عندنا لها قيمتها ، انظرى كم « ماز » تعطل ورائى ، ثم اضاف لطفى — وفى نبرات صوته معنى رائع من معانى العزة والوعى— « ياست هانم احنا مسئولين ، محناش مأجورين ، احنا بنبنى بلدنا ، العملية مش ، ايجار ، وكم نقلة ! .

ولست اخالنى بحاجة لوصف وقع هذا التصرف والقول فى نفسي ، أو للحديث عن الامكانيات الهائلة التى ينتظرها تاريخنا مطمئنا أن تحقق بهذه المسئولية وهذا الوعى !!

النموذج الثالث : وهو الاسطى عبد الكريم الكهربى :

عامل فنى كهربى ، اتجه حديثه وحديثنا معه بصفة خاصة الى مجال الخبرة الفنية ، من مجالات العمل فى السد العالى ، وهو بوضوح عجيب يعبر عن نفسه ، فى صيغة مباشرة وواضحة. لقد حدد الاسطى عبد الكريم « ابعاد الموضوع كما يعيها وكما يراها ، فقال وهو يقبض فى تحديد « النقاط » أصابع يده ، ويضغط كلا منها ، وكان يؤكد كل نقطة من عناصر حديثه .

أولا .. السد العالى ، بمعركته وبقيادته اكد أهمية الخبرة الفنية فى جميع مستوياتها ، للأمم التى تناضل من أجل التحرر والتقدم والتصنيع، والخبرة أهم من رأس المال ، ومن العملة الصعبة ، بل من الآلات ، فهذه صعوبات يمكن حلها ، ولكن الخبرة الفنية ، والخبراء هما اليوم سلاح الاستعمار الفتاك ، من اجل التحكم فى خطط الشعوب نفسها ، وسبيل السيطرة على هذه الشعوب ومصائرها فى منطق الاستعمار الجديد . الخبرة الفنية ياأخى فى مستوياتها كلها ، هى الضرورة القومية القصوى للأمة العربية فى معركة التحول الاشتراكى التى دخلتها .

والخبرة التى جاءنا بها العون السوفييتى رائعة ، وطويلة ، وهى أيضا لاتحمل معها نفوذا ماديا ، أو محاولة اقامة قاعدة فكرية للنفوذ المادى .

فنحن نتلقى العون والخبرة الفنية السوفياتية ، فى مرحلة تعيش فيها ثورتنا العربية الاصيلة ، وتدرك قيمتها ومفاهيمها الاساسية المميزة ، وحين تجرى بيننا احاديث أو تدور مناقشات ، فاننى أؤكد لك اننا لا نشعر بمركب نقص أو ضياع . اننا ثوار أحرار ، نتلقى المعونة من ثوار احرار يعرفون التباين بينهم فى العقائد والقيم والنظم .. ويجمعهم باسم الانسان والانسانية عزم ومصلحة على مكافحة الاستعمار ، وتدعيم السلام ، وصنع التقدم .

ثم مضي « الاسطى عبد الكريم » ينتقل فى حديثه للنقطة الثانية وهو يضم بقوة اصبعه الثانى الى جانب الاول الذى شرح به النقطة الاولى فقال :

« ثانيا .. نحن ياأختى هنا .. العاملين العرب ، كنا نهتم دائما بأن نسجل بالبناء والتجربة خبرة ، وان نتعلم ماتجهل ، ونطور ما نعرف ، ونسأل ونفكر ونبتكر ... واننى لواثق اننا نجحنا ،واننى لأفخر بأن

« كنز الخبرة الفنية » الذى جمعناه .. كلنا ، من المهندس ، الى العامل الفنى ، الى العامل العادى ، هو كنز ثمين ، انه من وجهة نظرى فى أهمية بناء السد نفسه » .

انه ياأختى ، راسمال وسلاح .. عربى وثورى واشتراكى ، واننى أناشدكم ان تقولوا لاخواننا العرب .. لجميع العاملين منهم فى الوطن العربى كله .. اننا نصنع راس المال والسلاح الحديثين ، فى خدمة الثورة العربية ، والوحدة العربية ، والاشتراكية العربية .. فى خدمة الاجيال العربية الجديدة كلها .

ان الاستعمار لن يتمكن من أن ينفذ الينا ، مسيطرا أو معوقا من خلال الافتقار الى الخبرة الفنية .

بل اننا وقد قام السد العالى ، فى نقطة تتوسط العالم القديم ، نضع خبرتنا فى خدمة الشعوب الآسيوية والافريقية المناضلة ، سنسد الطريق على الاستعمار ، وسنقطع السبل على ربيبته اسرائيل .

ان مجال الامتحان ، ممكن بل هو قائم الآن .

واننا على استعداد ان ننتقل بخبرتنا لنواجه تحويل نهر الاردن،بتحويل روافده فى سورية ولبنان والأردن .. لنواجه التحدى الصهيونى ونقضي عليه .

واستمر الأسطى الكهربى فى حديثه ، باليدين وقسمات الوجه ، وباللسان ، ونبرات الثقة والوعى فى صوته ، تزيد سرعة نبضات الدهشة والفرحة فى عروقى ليقول :

وبالاختصار نحن فرق العمال الفنيين من بناة السد العالى « نبنى بلدنا » وبالبناء نزداد كل يوم عددا وكفاية .

ومع كل ذلك فنحن بجانب فرق جيشنا العربى نعتبر كتائب العمل والسلاح من أجل بناء وطننا الكبير وتحريره وتوحيده ، ومن أجل فلسطين .

وصافحت عبد الكريم مودعة وهو يقول مودعا ـ وكنت قد قدمت له نفسي بعد حديثه على اننى من الاقاليم الشمالى ـ الى اللقاء فى دمشق تحت علم الوحدة ، وسنبنى ، تحت اعلامها سد الفرات .

لست انكر اننى بعد هذا الحديث بالذات ، اصبحت معنية كل العناية بأن نتحدث مع المسئولين فى الموقع .. المسئولين فى الادارة ، المسئولين

فى العلاقات العامة ، المهندسين ، فقد كان هذا الوعى فى « القاعدة » ذخيرة تقتضي أن يحاول الانسان ، تقويم المستويات القيادية العليا من بناة السد بالنسبة لها .

وكان حديثنا مع « هذا القطاع » من بناة السد يملأ آخر الساعات التى قضيناها فى آخر زيارة لنا للموقع ، وكانت فى الليل ، بعد زيارتين أخريين استغرقت كل منهما نهارا يكاد يكون كاملا .

وبمقدار ماكان هذا الحديث .. حديثا مع البناة وعنهم ، فقد كان أيضا الحديث الذى صور لنا فيه البناة والبناء المعجزة فى صورتها الكاملة وأبعادها الفنية والاحصائيات الهائلة الرائعة .

ودار هذا الحديث فى البناء الذى يضم « نموذج السد فى صورته النهائية » وهو البناء الذى يؤمه الزائرون قبل أن يحدروا علىسفح الجبل فى البر الشرقى ليشهدوا العمل الجبار والآلات الهائلة .. والعمال ، يقفون فوق مستوى العمل والالة ، على ماهما عليه من جبروت وضخامة .

وكنا قد اخترنا ان نعكس الحال ، فنزور الموقع ، لنشهد العمل والعمال والآلات ، ونعيش فى التفاصيل الهائلة الضخمة على الرغم من كونها تفاصيل قبل أن نحاول رؤيتها وتقويمها فى اطار من وحدة العمل .

كنا نرغب فى رؤية كل شجرة من اشجار الحرس الكبير ، فنحس بحقيقة وجودها قبل أن تفقد فى منظر الحرس الكبير الرائع لهذا الوجود .

عدنا بعد الجولة الليلية فى الموقع — ولهذه الجولة فى الموقع روعة لا توصف — صعودا الى البناء الذى يضم النموذج .

وفى داخل البناء ، ونموذج السد العالى فى صورته النهائية رابض على أرض البناء ، يطل عليه ، واللوحات والخرائط التى توضح الكثير من الجوانب الفنية للمارد الكبير تغطى جدران البناء تواجهنا ، والابراج المدهونة فى القبة التى تكون سقف البناء ، كأنها من السماء تطل علينا ، دار حديث ممتع جاد يحمل مسئولية ضخمة :

بهذا الحديث صور لنا الاخوان من العاملين « الكبار » فى السد العالى ، المشروع الجبار من الناحية الفنية الرائعة ، بالاحصائيات الجبارة .. وبالنموذج الذى نراه صورة مصغرة جميلة للبناء الكبير .

ولعله من الاسهاب غير المفيد أن اتحدث عن « الجو العقلى والنفسي الذى كان يتحدث به هؤلا البناة ، عن المارد الذى يشق بناة السد العالى

الجبل « حتة حتة » كى يقوم .. قناة لتحويل مجرى النيل الخالد ، ضخمة رائعة وجديدة ، تتحول اليها المياه عن مجراها ، الذى لامست منه القاع والضفاف مدة تكاد تطول لتبلغ عمر الأرض لا عمر الحياة عليها فحسب ، ثم سدا ركاميا هائلا يربض بعضه فى مجرى النيل القديم فيسده ، ويمتد البعض الآخر فى البرين الشرقى والغربى على صورة أجنحة ودعامات تثبت القلب الذى يرتفع ليصمد أمام آلاف ملايين الامتار المكعبة من مياه النيل ، التى تصطدم به وهى مبحرة فى رحلتها الخالدة الى المتوسط ، لتسير فى المجرى الجديد ، وتخضع « لنظام » يفرضه الانسان من أجل الحياة .. تمر فى الانفاق الهائلة بحساب وتوقيت ، لتروى الارض وفقا لحاجات الانسان ، التى يريد من الارض أن تنتجها ، غير معرضة لعطش او طوفان ، كما كان يحدث من قبل ، وتولد مئات الآلاف من وحدات الطاقة الكهربية التى لابد منها ، لتصنع التقدم صنعا يواكب اتساع الانتاج بالزراعة ، ولتبعث النور مع وفرة الانتاج فى الارض وفى الحياة .

ما أعظم الانسان !

انه الكائن الحى الوحيد الذى تعى به الطبيعة نفسها ، وتدرك بعقله اسرارها وتكتشف قوانينها ، فيتمكن بذلك من أن ينتصر على « قواها وطاقاتها » ، وبهذا الانتصار ، وما يتحقق به من سيطرة تصبح قوى الطبيعة وطاقاتها .. وثرواتها فى خدمة الانسان والحياة .. وسائل للانتاج ، وللتقدم .

ولقد أجمل البناة الكبار أبعاد مشروع السد العالى فى جوانبه المختلفة ، وكل منهم يضيف حقيقة ضخمة ، أو رقما جبارا فى رسم الصورة أمامنا وكانوا بالتعاون ، فى رسمها ووصفها كأنهم يتعاونون على بناء السد فى مراحله المختلفة حقيقة وفعلا .

لقد اختير موقع اقامة السد العالى ، لأسباب علمية وفنية ، فى نقطة من نقط مجرى النيل تقع على بعد ٧ ك . م جنوبى خزان اسوان القديم ، وأهم هذه الاسباب ضيق المجرى ، وقلة العمق نسبيا ، وطبيعة قاع المجرى .

والسد بناء ركامى يقوم بشكل جبل من ركام الجرانيت :

طوله	٣٦٠٠ م
ارتفاعه	١١١ م
عرضه	٩٨٠ م
عرض الطريق فوقه	٤٠ م

وسيزود بستارة رأسية قاطعة للمياه بطريقة الحقن عمقها ٢١٠ امتار تحت قاع النهر .

ولنتصور ضخامة ما تعنيه هذه الارقام ، ومقدار الجهد الانساني الذى يتطلب بذله يكفى أن نذكر ان المواد التى ستستعمل فى بنائه ، تقدر بنحو ٤٣ مليون متر مكعب ، وهو يعادل حجم الهرم الاكبر ١٨ مرة .

وهذا السد ، يعترض بكل ضخامته مجرى النهر الحالى ، ليحجز منسوب المياه الى ١٨٢ مترا ، فيخزن ١٥٧ مليار م مكعب ، ومن هذه السعة ، يخصص مشروع السد ٣٠٠ مليار متر مكعب لرسوب الطمى الذى يحمله معه ماء النيل ، فاذا علمنا ان تقدير كمية الطمى الذى يترسب هى ٦٠ مليون متر تقريبا فى كل عام ، اتضح لنا أن المشروع لا يتأثر فى سعته الحية طوال ٥٠٠ عام يصبح بعدها المنسوب فى نقطة قد لا تكفى لتشغيل محطات الكهربا بكفاية جيدة .

ان الزمن يفرض نفسه ... ولكن بعد ٥٠٠ سنة ، يتحكم بها العلم والانسان .

أما الباقى من السعة ومقداره ١٢٧ مليار متر مكعب فانها تنقسم الى قسمين : ٣٧ مليار متر مكعب تقع بين منسوب يتردد بين ١٧٥ و ١٨٢ مترا للوقاية من الفيضانات ، والباقى ومقداره ٩٠ مليار متر مكعب يقع بين منسوبى ١٤٧ مترا و١٧٥ مترا فهى السعة الحية المخصصة لسحب المياه بمعدل يساوى مجموع الايراد الفعلى من النهر خلال ستين سنة مضت ، وتقوم امام السد بحيرة « ناصر » لخزن الماء ، وهى أعظم بحيرة صناعية فى العالم :

مسطحها	٥٠٠٠ ك م ٢
طولها نحو	٥٠٠ ك م
متوسط عرضها	١٠ ك م

ولكى نتصور مرة أخرى ، ضخامة ما تعنيه هذه الارقام أيضا ، نترك للقارىء العربى أن يقوم بعملية حسابية تتناول مسح جميع البحيرات الطبيعية الموجودة فى العالم العربى ، مضافة اليها كميات الماء التى تستعمل فى الزراعة من أنهاره ، ليقارنها ببحيرة ناصر ، وكميات الماء التى يخزنها السد ويتحكم فيها .

أما جسم السد فيتكون من :

السد الجزئى الأمامى .

السد الجزئى الخلفى .

السد الرئيسي .

أما مجرى التحويل فهو قناة تقعخلف السد وامامه ، وهى مكشوفة، أما وسط مجرى التحويل فقد ترك فى الجبل الرابض مكانه بعد حفر ستة أنفاق فى باطن الجبل .

وهذه الأنفاق مزودة ببوابات حديدية ، تتحكم فى كمية المياه ، وكيفية التصرف بها ، تعززها بوابات اخرى أمامية وخلفية للمساعدة اذا احتاجت الضرورة اليها عند الطوارىء .

والجزء الامامى من قناة التحويل المكشوفة .

يبلغ طوله		١١٥٠ م
عند القناة	عند المدخل	٢٥٠ م
	يصل الى	٥٠ م
	يزيد عند الانفاق الى	٢٣٠ م
القناة الخلفية :		
طولها		٤٨٦ م
وعرضها	عند مخزن الانفاق	٢٧٨ر٥ م
	ويقل تدريجيا حتى يبلغ	
	عند المخرج	٥٠ م

والقطر الداخلى للأنفاق ١٧ م مبطن بطبقة خرسانية سمكها متر واحد ليصبح صافى قطره ١٥ م .

وسوف تبلغ قدرة مجرى التحويل على تمرير المياه ١٥٠ مليون م مكعب فى اليوم ، وهى قدرة تفوق اية قدرة مماثلة لأية قناة صناعية فى العالم .

أما محطة الكهربا فتقام فى البر الشرقى ، اى بمجرى القناة الخلفية وعند مخرج الانفاق ، وستشتمل على ١٢ وحدة لتوليد الكهربا تدار بالتربينات ، التى قوة كل واحدة منها ١٧٥٠٠٠ر كيلوات ، وتبلغ قوة هذه المحطة ٢ر١٠٠ر٠٠٠ كيلوات ، وتقدر الطاقة القصوى لهذه المحطة بنحو ١٠ر٠٠٠ كيلوات ساعة فى السنة .

وسيتم تنفيذ المشروع على مراحل ، مع مراعاة الافادة القصوى مما يتحقق فى كل مرحلة ، فالمشروع يبدأ فى اعطاء المردود منذ اتمام المرحلة

الاولى ، ليزداد هذا المردود ، فيبلغ مداه الكامل باتمام مراحله الأخيرة .

واذا كان البناة قد اثبتوا فى المرحلة الأولى ، التى هى اشق المراحل واصعبها ، الكفاية والقدرة التى اتاحت لهم بالمسئولية والثورية ان يسبقوا التوقيت والزمن ، فانه يكون من الممكن ، بل من المنتظر أن تختصر مراحل التنفيذ عن الخطة الموضوعة لها .

ومراحل التنفيذ ــ كما هى فى الخطة ــ كما يلى :

المرحلة الأولى : وهى مرحلة اقفال مجرى النهر وتحويل المياه الى المجرى الجديد فى ١٥ من مايو ١٩٦٤ .

أما المرحلة الثانية : فتنتهى فى سنة ١٩٦٧ حين يصبح التخزين المستمر ممكنا .

وفى عام ١٩٦٨ يتم بناء السد الرئيسي نهائيا وتقوم شبكة الخطوط الكهربية وبذلك تتم المرحلة الثالثة فى عام ١٩٦٨ تمهيدا لاتمام بناء محطة الكهربا بشكلها النهائى الكامل وبهذا يعلن اتمام مشروع بناء السد العالى فى سنة ١٩٧١ .

اما الأرقام والاحصائيات التى تتحدث عن مشروع السد العالى من الوجهة المالية والاقتصادية وتكاليف المشروع فتتلخص فيما يلى :

اولا : التكاليف :

بناء السد العالى حتى آخر مراحله	٨٥ر٥ مليون جنيه
محطة توليد الكهربا وتركيبها	٥٧ر٥ « «
محطة التحويل ومد خطوط نقل الطاقة الكهربية	٥٠ « «
مشروعات الرى واصلاح الأراضي وانشاء المساكن وشبكة الطـــرق	٢٠٥ « «
تعويضات حلفا والنوبة	٢٠ « «
المجمـــوع	٤١٨ر٠ مليون جنيه

وقد بلغ ما صرف فى المرحلة الاولى التى تمت بتحويل مجرى النيل فى ١٥ مايو ١٩٦٤ نحو ١٠٠ مليون جنيه .

اما النتائج المباشرة فجدير بنا ونحن نتحدث عنها ، أن نذكر أنها تعود لا على مصر فحسب ، بل على مصر والسودان .

ونتائج السد وفوائده للسودان تتلخص فيما يلى :

١ ــ تتضاعف المساحة المزروعة الى ثلاثة أمثالها الآن .

٢ ــ امكان رى جميع الأراضي المزروعة الآن وما يجد ، مع التوسع فى زراعة القطن ذى التيلة الطويلة .

٣ ــ زيادة الطاقة الكهربية والتخزينية للسدود ، والخزانات ، التى تقيمها حكومة السودان .

٤ ــ وبالاختصار زيادة الدخل السنوى الحكومى والقومى من الزراعة بما يبلغ ٣٠٠ ٪ .

أما فوائد السد لمصر بعد ذلك فانها تكاد تصيب جميع مجالات الحياة الاقتصادية ، وقد لاحظت أن السيد / محمد حسنى أمين ، وهو من بناة السد العالى ، قد أحسن صياغتها فى كتابه (السد العالى ثورة شاملة) ولهذا أنقلها بنصها فيما يلى :

ان السد العالى يتيح لنا المزايا التالية :

١ ــ التوسع الزراعى فى مساحة نحو مليون فدان ، مع تحويل حياض الوجه القبلى فى مساحة نحو ٧٠٠ر٠٠٠ فدان الى رى مستديم بما يزيد المساحة المزروعة الحالية ٣٠ ٪ .

٢ ــ ضمان احتياجات الرى لجميع الاراضي المزروعة ، الحالية والمستجدة فى جميع السنين حتى فى أقل السنين ايرادا معضمان وصول مياه الرى للزراعات المختلفة بالكميات المناسبة فى الأوقات المناسبة بما يزيد من غلتها .

٣ ــ تحسين صرف جميع الاراضي الزراعية بما يزيد غلتها فضلا على تبسيط مشروعات الصرف ، وتوفير كثير من نفقاتها .

٤ ــ ضمان زراعة ٧٠٠ر٠٠٠ فدان أرز سنويا مهما كان ايراد النهر .

٥ ــ الوقاية الكاملة من أخطار الفيضانات العالية دون الحاجة الى تعلية جسور النيل الحالية او تقويتها ، وتصرف عليه مصلحة الرى فى الوقت الحاضر مبالغ باهظة سنويا ، فضلا على تفادى تلف كثير من الزراعات بسبب رشح المياه بها وتوفير جهود عمال مراقبة جسور النيل فى أثناء الفيضانات والافادة بها فى الشئون الزراعية .

٦ ــ تحسين حالة الملاحة .

٧ ــ تحسين اقتصاديات كهربة خزان أسون بما يضاعف الطاقة الكهربية الثابتة للمحطة .

٨ ــ ضمان وجود فرق توازن على قناطر النيل الكبرى طول العام مما يهيىء توليد القوى الكهربية منها ، ويتيح اقامة قناطر أخرى للافادة بجميع انحدرات مياه النيل فى توليد الكهربا .

٩ ــ توليد طاقة كهربية تقدر بنحو ١٠ مليار كيلوات ساعة سنويا أو ما يعادل ستة أمثال الطاقة الكهربية المستعملة بمصر فى الوقت الحاضر ، مما يساعد علىخلق صناعاتجديدة وازهار الصناعاتالحالية .

١٠ ــ توفير نحو ٥ر٢ مليون طن مازوت سنويا .

١١ ــ توفير العملات الصعبة بسبب الاستغناء عن كثير من المواد المستوردة .

١٢ ــ تشغيل مئات الالوف من العمال فى اصلاح الاراضي وفى الصناعات الجديدة .

وبتحويل هذه المزايا الى أرقام نرى أن الزيادة فى الدخل القومى والدخل الحكومى التى يمكن أن تحصل عليها الجمهورية العربية المتحدة من تنفيذ هذا المشروع والمشروعات المترتبة عليه مقدرة بملايين الجنيهات المصرية كالآتى :

أولا ــ الزيادة السنوية فى الدخل القومى :

١ ــ التوسع فى زراعة نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر١ فدان جدد مع تحويل حياض الوجه القبلى الى نظام الرى المستديم	٦٢	مليون جنيه
٢ ــ ضمان احتياجات الرى لجميع الاراضي المزروعة الآن وما يجد منها فى جميع السنين حتى فى أقل السنين ايرادا وتحسين صرفها وضمان زراعة ٠٠٠ر٧٠٠ فدان أرز سنويا	٥٦	مليون جنيه
٣ ــ وقاية البلاد من اخطار الفيضانات العالية ، ومنع الرشح فىالاراضي المجاورة ، وتلافى غرق السواحل والجزر	١٠	مليون جنيه
٤ ــ تحسين الملاحة باعتبارها اثرا من آثار التحكم فى التصرفات خلف السد	٥	مليون جنيه
٥ ــ انتاج طاقة كهربية تقدر بنحو١٠مليارات كيلوات ساعة سنويا،مع تحسيناقتصاديات مشروع كهربة خزان اسوان	١٠٠	مليون جنيه
الجملة	٢٣٤	مليون جنيه

ثانيا ــ الزيادة السنوية فى الدخل الحكومى :

١ ــ الزيادة فى الدخل الحكومى من متحصــلات الاموال والضرائب على الاطيان الجديدة وزيادة انتاج الاراضي الحالية ٩ مليون جنيه

٢ ــ زيادة دخل الحكومة من تحســـين الملاحة وتوفير مصروفات حفظ جسور النيل وخلافها ٥ر٢ مليون جنيه

٣ ــ زيادة دخل الحكومة من مشروع كهربة السد العالى ٥ر١٠ مليون جنيه .

الجمـــلة ٠ر٢٢ مليون جنيه

ويتضح مما سبق أن نسبة العائد من المشروع الى جمــلة تكاليفه تبلغ حوالى ٥٨٪ وهى نسبةعالية جدا ، كما أن المشروع سيعود بحصيلة من بيع الاراضي التى سيتم استصلاحها .

لقد كنت مشفقة طيلة الوقت ، الذى كنت استمع فيه للبناة الكبار ، وهم يصورون بالارقام الضخمة ، والاحصائيات الهائلة البناء الذى يتولون مسئوليات الاشراف على ادارة أعماله .. ، وكنت مشفقة أن تقتصر أبعاد تصورهم للبناء وتقويمهم لمعناه وآثاره ، وتتبعهـــم لنموه بالأرقـــام والاحصائيات ، وكنت أشفق أن أجــد نوعا من « البيروقراطية » الفعالة المنتجة ، وهذا ما رأيناه فعلا فى أثناء مشاهدة العمل فى الموقع .

وكم كنت سعيدة اذ وجدت هؤلاء الشباب ، وكلهــم لم يتخط سن الأربعين ، يوفرون على كثيرا مما يدور فى رأسي من استعلامات وخواطر !
لقد أوضحوا بتواضع ومسئولية ، الصعوبات والمشاكل الانسانية والحقيقة التى كان لابد من مواجهتها ، وأكدوا مما « تعلموه فى الموقع » اهمية التفاعل الانســـانى الحى الذى يحطم اطارات البيروقراطية فى العلاقات بين فريق من البناة ، يقوم بأعظم عمل يخضع فيه لأقسي ظروف انه التفاعل الذى تحل به مسئولية العامل فى أداء الواجب ، تقديرا منه للواجب ، ووعيا لآثاره ، وحماسا لانجازه فى اطار من الشعور باحترام انسانيته وامكانياته ومشاكله محل العمل ، تحت عوامل الضغط ، وبمنطق الشعور بالآلية ، وبالسخرة المعنوية .

وكم كان رائعا أن يقول المهندس « طلعت » نحن يا أختى ، نعمــل اليهم عملا ، جميع أبعاده كبيرة وهائلة .. واذا كنا على الابعاد الكبيرة

والهائلة قد حفرنا فى الارض القنـــاة ، واقمنا على الارض الاهــرام الخالدة .

فاننى اؤكد لكم ، اننا جميعا من العامل ، الى المهندس ، الى المدير اصبحنا بقواعد الثورة الاشتراكية العربية فى اخلاقيتها وفى نظرتهـا للانسان التى يؤكدها ويعمقها فىاجيالهذه الامة الرئيس جمال عبدالناصر وبالمسلك والعمل ، نعى وندرك الفروق الهائلة والاساسية بين « البنـاء والبناة » فى السد العالى ، وبين البناة والبناء فى غيره .

نحن يا اختى نبنى بالأحياء منأجل الأحياء ، ونبنى الاحياء ، أى نبنى انفسنا .

نحن يا اختى نبنى البلد بأبنائه ومن اجل ابنائه ، ولابد ان يجسم السد العالى كبناة وبناء ، جميع هذه الحقائق والمعانى ، اننا نستلهم قول الرئيس فى الميثاق :

« ان العبيد يقدرون على حمل الاحجار ، واما الاحرار فهم وحدهم القادرون على التحليق الى آفاق النجوم . » ونحن بنضال شعبنا من أجل الحرية نبنى السد ، ولكى نحلق الى آفاق النجوم ، نقيمه عاليا .

واضاف العميد مدير التنسيق ، مدعمــا ما قاله المهندس طلعت ، ومبينا العوامل العلمية والانسانية التى تؤكد ما قاله ، فتحدث حديثامطولا عن الكفايات التى كشفها العمل بين صفوف العاملين من بناة السد العالى وبدت فى مجالات الابتــكار ، وسرعة « لقط » الخبرة الفنية . . . ثم فى القيادة الجماهيرية .

ولقد ارتبطت بهذا فى ذهنى احاديث الفدائى البورسعيدى احمد ، وسائق « الماز » لطفى ، والاسطى عبد الكريم بأحاديث المهندس والعميد وبدا أمامى جليا رائعا « عمق الثورة » فى البناة والبناء ، وبقى يرن فى أذنى مضمون العبارة التى سمعتها تتردد مع كل نبضات البناء والاحياء التى تملأ الموقع فى السد العــالى . . عبارة « نبنى بلـــدنا » ، فنحن « بناة وبناء » . . « نبنى البناء وهو أيضا يبنينا »

الفصل الخامس

من بور سعيد
الى اسوان

ملحمة الكفاح الثورى
البطولى الفدائى العربى

« ان الشـــعوب تقيم النصـــب التذكارية تخليدا لانتصاراتها الكبرى ، واننا لنعتبر أن السد العـــالى هو النصب التذكارى لمعـــركة العرب ، وانطلاقة القومية العربية لتحقيـــق دورها التاريخى ودورها الانسانى .

انه تذكار حى خلاق ، وليس مجرد حجر اصـــم تلقى الزهور حوله فى المناسبات » .

« جمال عبد الناصر »

من بور سعيد الى اسوان

عنوان هذا الفصل ، اختاره وحدده ، عامل من عمال السد العالى اسمه « احمد » عمله التفجير ، وسلاحه المتفجرات .

جاء أحمد ، الى اسوان مارا بالسويس قادما من بور سعيد ، وكان من الفدائيين فى معركتها ، عمله التفجير ، وسلاحه المتفجرات .

وعندما تحقق لاحمد ، السلام بالحرية انتصارا على الاستعمار والصهيونية والرجعية والعدوان ، جاء من « بور سعيد الى اسوان » ليسهم فى تحقيق التقدم والكفاية بالتحرر من التخلف ، وبالانتصار على الطبيعة والزمن .. وبقى عمله التفجير وسلاحه المتفجرات .

اليس « احمد » هذا نموذجا رائعا ، للقوى التى تعيد اليوم صنع الحياة العربية وتكشف بالنضال — فى لونيه — من أجل صنعها ، عن مدى الطاقات التى تزخر بها القوى الاجتماعية العربية العاملة من امثال أحمد .. انها الطاقات البشرية الجديدة ، المؤمنة والعاملة . واذا كان عملها وسلاحها كفاحا ينسف فى معركة التحرر والتقدم قواعد الاستعمار والاستغلال ، ويهزم العدوان .. فان هذا الكفاح ذاته ، وهذا السلاح نفسه مطالبان ايضا فى معركة الكفاية والعدل بأن يهزما بالبناء : الجمود ، والركود ، والتخلف .

انها النماذج البشرية الجديدة ، التى تتحمل مسئوليات معركة الحياة فى ادق مراحلها : مرحلة قيام الثورة السياسية وحمايتها ، ومرحلة التحول الجذرى الشامل ، طلبا للمجتمع الجديد .. فتكون بحق .. طلائع الفداء فى مرحلة التحول الحاسمة من حياة أمتنا العربية .

قال لى « احمد » بثقة المناضل ، ومسئولية الجندى الذى مارس النضال .. وبفرحة البانى ، ومسئولية الذى يقيم البناء :

« نحن بناة السد العالى ، كتائب الفداء العربية .. يكمل بعضنا بالعرق والجهد فى جبال اسوان العمل الجبار الذى وضعنا اساسه بالدم — دم الفداء — فى بور سعيد ، ويكمل بعضنا الآخر يوم الاخاء فى جبال اليمن الهدف الكبير الذى من اجله خضنا المعركة فى بور سعيد بدم الفداء ، فتمتزج دماؤنا ، باسم وحدة الثورة العربية ، مع دماء المناضلين الثوار فى اليمن ونحن ننتظر ، جميعنا ، بعد ذلك المعركة التى نخوضها بالدم ، وبالعرق ، وبالجهد ، معركة المصير والوطن والشرف .. معركة سحق دولة الصهاينة ، واسترداد فلسطين .

ولا تستغربن أن انقل لك هذه المعانى التى نطق بها احمد .. عامل التفجير ، وخبير المتفجرات .. فهذه المعانى بأية صورة ، هى المعانى التى تجدها عميقة فى نفوس بناة السد العالى ، تزداد بممارسة البناء وبالنصر فيه ، عمقا ووضوحا .

ومهما كان مدى الآمال العريضة ، التى يعلقها هؤلاء البناة على ما سيتحقق بقيام السد العالى ، من اتساع فى رقعة الارض المزروعة ،ومن توفير الطاقة الكهربية التى تدير الآلة ، فتبنى الصناعة ، وتبعث النور الذى يبدد الظلام .. فى « مصر » ، فان الصلة بين تحقق هذه الآمال ، وبين توفير معانى القوة الذاتية العربية ، لاستكمال تحرير الوطن وتوحيده من اجل مغالبة الخطر الصهيونى وسحقه ، وفى سبيل بناء المجتمع العربى الاشتراكى ، هى صلة واضحة فى اذهان « احمد » والكثيرين من رفاقه من بناة السد العالى .

انهم فى وعيهم العربى الثورى ، يدركون المكان الحقيقى « للعمل أو التقدم الوطنى » من الهدف القومى الكبير ، فاذا بهم لا يدركون ان العمل الوطنى غير متناقض مع الهدف القومى فحسب وانما يدركون ماهو أعمق من هذا وأصدق ، وهو .. أن العمل الوطنى ، لابد أن يكون جزءا من النضال على طريق الهدف العربى القومى ، خاضعا لمنطقه ، مستلهما ضروراته ومقتضياته .

واذا كان تعميق هذا المعنى ، وتأكيد منطقه ، هما فى طليعة المهام التى تقع على طلائع القوى الاجتماعية العربية الثائرة وعلى قياداتها ، أينما كانت فى اجزاء الوطن ، ومهما كان مستواها من مسئولية القيادة.. فان وجود هذا المعنى أصيلا فى نفوس جماهير شعبنا العربى ، نابعا

من حقائقه واصوله المادية والتراثية والروحية ، هو وجود يقيم القاعدة الموضوعية اللازمة لتحقيق وحدة النضال الثورى العربى ، بمنطق وحدة الهدف ، ووحدة الثورة ، ووحدة الحركة ، وهو فى الوقت ذاته وجـود يحمل قيادات هذه القوى ، على حسب مكانتها من المسئولية والفعالية ، مسئوليات تاريخية جسام ، لا عذر لها أمام التاريخ اذا قصرت عن أدائها فعجزت عن تحقيق هذه الوحدة .

واذا كان السد العالى كبناة وبناء ، هو مصدر الالهام ، لصدور هذا الكتاب ، واذا كان العامل العربى الفدائى المناضـــل « احمد » « البورسعيدى » قد اختار لهذا الفصل عنوانه ، فهو أيضا قد كتب بالدم وبالعرق محتوى قصة الكفاح التى تحمل هذا العنوان .

وانه ليسعدنى ويشرفنى وأنا اقرر هذه الحقيقة فى مطلع هـذا الفصل ان انسب هذا الفصل الى « فتى بورسعيد العربى » وأن أهديه اليه .

ان قيام السد العالى ، انما هو ثمرة كفاح ثورى طويل ، شـمل أبعاد الحياة العربية المختلفة ، على نطاق الوطن الكبير بلا حدود ورفعت رايته عالية كتائب الفداء وقوافل المناضلين من قوى هذا الشعب العاملة فى جميع اجزاء الوطن منذ فجر ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

ولا بد أن تكون قصة هذا الكفاح القومى العربى ، بحـــرارتها وآمالها ، وبشهدائها ونضالها ، ماثلة فى ذهن كل واحد منا ، كى يتمكن من « الارتفاع » الى مستوى السد العالى ، لتقويمه وادراك مغزى قيامه وعبره وآثاره التى تمتد عميقة فى النضال العربى ، عريضة فى أرجاء الوطن ، فيراه بناء جبارا شامخا يقوم على قواعد من التضحية والكفاح الى جانب قيامه على قواعد من الاسمنت والعمل ، بعضها يمضي عميقا الى قاع النيل ، والبعض الآخر « يخرطه » العلم والعمل فى جبل الجرانيت الاصم .

واذا كانت قصة بناء السد العالى ، هى قصة الكفاح العربى الثورى من « بور سعيد الى اسوان » التى احسن « أحمد » اختيار بدايتهـا ونهايتها ، فمما لا شك فيه أيضا أن للبداية مقدماتها التى بلغت الذروة بالنصر فى بور سـعيد ، وان للنهاية نتائجها التى تنطلق مع النصر بتشييد « السد العالى » فى أسوان

على ضفاف النيل الخالد ، وفى شريط المزارع الاخضر ، الذى يمتد مع مجرى النيل ، وهو يضيق أحيانا ، ويتسع أخرى ، قامت منذ آلاف السنين وترعرعت حضارة بقيت على مر الزمن من أعظم الحضارات واعرقها .

وعبر التاريخ .. فى هذا الشريط الخصب ، الذى يواكب مجرى النيل وهو يبحر فى رحلته الطويلة من الصعيد الى البحر المتوسط ، كان « الانسان الفلاح » فى جميع العصور ، يتفاعل مع « الارض » فى حنان ، تصبح به الارض جزءا من أسرة هذا الفلاح ، ويضفى على « الانتاج » منها طابعا انسانيا فيعطى الارض مدلولات ومعانى تجعل منها شيئا حيا ، فلا غرو أن نجد النيل ، والخصب ، والحصاد ، ترتفع الى مصاف الآلهة فى تاريخ حضارة وادى النيل .

ومع سير التاريخ والحياة ، ومع النمو الطبيعى للسكان ، كانت تنمو وتتطور أيضا « مسألة الماء والارض والانسان » .. كيف يحقق « الانسان » وصول الماء للأرض ، توفيرا للخصب ، وتوسيعا لرقعة الارض الحية المنتجة من أجل مواجهة النمو الطبيعى للسكان .. ومن أجل الحياة ؟

واذا كانت هندسة الرى ، وجميع ما يتصل بها من العلوم والفنون ، قد بلغت فى مصر منذ القدم القديم ، مستوى عاليا مبعثه الحاجة لمواجهة التحدى الذى تنطوى عليه تلك المسألة ، مسألة الماء والارض والانسان ، فمما لا شك فيه ايضا أن « حل هذه المسألة » بتفاعل مصر مع المنطقة المحيطة بها وشعوبها ، كان أيضا ، من بين الاساليب التى وردت فى مواجهة تلك المسألة ، وفى حلها .

واذا كانت « زيادة الدخل الوطنى » بجميع الوسائل والاساليب ، تكون سبيلا أساسيا من سبل مواجهة هذا التحدى ، واذا كان تحديد النسل أو تنظيمه يكون احد السبل التى تطرح فى هذا المجال أيضا .. فاننى لأجد من الحق والواجب باسم المفهوم العلمى للقومية العربية والاشتراكية العربية ، ان أشير الى أن « الوحدة » يجب ان تكون ماثلة فى الذهن لدى التفكير فى مواجهة هذا التحدى وأمثاله فى اى قطر عربى ، ولدى كل تخطيط يستهدف مواجهته .

ان القومية العربية ، كأساس للوحدة ، وان الاشتراكية العربية كمدلول لها ، كما افهم ، يجب أن تعنى أن .. ثروات الوطن العربى على نطاق الوطن العربى بلا حدود — أرضها وسماؤها ، ومعادنها وبترولها ،

وماؤها ، هى ملك للقوى الاجتماعية العاملة فى الوطن كله بلا حدود أيضا .

وان من أهم مقومات الاشتراكية العربية ، وهى تقوم علميا على اساس سيطرة الشعب على الثروات الطبيعية ووسائل الانتاج ، وملكيته لها ، انها تعنى بعبارة « الثروات الطبيعية ووسائل الانتاج » هذه الثروات والوسائل فى الوطن العربى كله ، وتعنى فى الوقت نفسه ، بكلمة « الشعب » القوى الاجتماعية العربية العاملة على نطاق الوطن العربى كله أيضا .

وان كل مفهوم اقليمى لهاتين العبارتين ، وكل تصرف يجسم هذا المفهوم ، انما هما مفهوم وتصرف غير قوميين ، ويرجح أيضا أن يتبلورا غير اشتراكيين .

فليس بالقومى العربى او بالاشتراكى العربى من يعتبر ، بالقول او بالعمل ، أن الثروة ووسائل الانتاج فى كل قطر عربى هى ملك لشعب هذا القطر فقط .

ولا شك أن مسألة الارض والماء والانسان ، كانت دائما فى «مصر» مسألة خاصة ومميزة ، تعطى الحياة الحضارية ، الماديةوالروحية ، عنصرا اساسيا من عناصر مضمونها وسمة أساسية من سماتها ، كما تكون منبعا للنضال التحررى الذى يدور منذ أجيال ، حول حل المسألة فى أبعادها المختلفة ، وهذا الحل يقوم الى أكبر حد على « الفلاح » كقوة أساسية فى هذا النضال ، وكهدف أول من أهدافه .

واذا كان التطور التاريخى العام ، للاستعمار والاستغلال الراسمالى الحديث ، الذى فرض ظله الاسود ، وقبضته الدامية ، على أرض مصر ، مع مطالع القرن التاسع عشر تقريبا ، اذا كان هذا التطور ، قد اقتضي مقدارا من التقدم الكمى والفنى المحدود فى مواجهة مسألة الماء والارض والانسان ، فقامت بعض القناطر والخزانات ومشروعات الرى أو استصلاح الارض ، فلقد بقى هذا التقدم المحدود ، خاضعا فى جميع أبعاده للاهداف والمصالح الاستعمارية الاستغلالية ، الاجنبية والوطنية التى كانت تتوحد فى حلف غير مقدس ، يفرض منطقه غير الانسانى ، ويثبته بجميع وسائل الارهابوالتخلف والجهل والزيفوالتضليل ، فلم يستفد الفلاح أو الشعب فى أكثريته الساحقة من ذلك التقدم ومشروعاته شيئا يذكر ، بل ذهبت الفائدة كلها للمستعمرين وشركائهم وحلفائهم من الحكام والاقطاعيين .

لقد اقتسم التحالف الاستعمارى الرجعى ، الارض والماء ، بل لقد اقتسم أيضا الحياة والاحياء ، وجعل من « الفلاح » وهو الاكثرية الساحقة من الشعب .. جعل منه « أداة انتاج » ، لا يعود اليها مما تنتجه ، الا نسبة تافهة تمسك الرمق وتبقى على هذا الانسان حيا سنين معدودات يكون قادرا فيها على بذل الجهد والعرق والدموع فى سبيل توفير الارباح التى تفيض من عرقه وجهده ليكدسها المستعمرون والاقطاعيون نهبا ، غير حلال .

ان هذا « الانسان » فى ظلال ذلك النظام الاستعمارى الاستغلالى لم يتحول الى « آلة انتاج » فحسب ، بل لقد جعلوا منه آلة رخيصة الثمن والتكاليف ، فلم يكن « الفلاح » ليكلف الاستعمار والاقطاع طيلة حياته ما يوازى « صيانة آلة نضح الماء » .

ان دراسة احصائية لدخل الفلاح ، ولمتوسط عمره فى ظل هذا النظام ولنسبة الوفيات بين الاطفال فى الريف ، لتفضح بشكل مروع مقدار ما يجسمه تحالف الاستعمار والاستغلال من « لا انسانية » بربرية .

ان الاستعمار والاستغلال ، الاوربى الحديث ، دخل الى مصر فى مرحلة هامة من مراحل تطوره .

فان الاستعمار كان قد تطور فى ذلك الوقت ، من مجرد احتلال المستعمرات ، واستنزاف مواردها الى معركة الاحتكارات المالية لاستثمار رءوس الاموال المنهوبة من المستعمرات .

وبدات الاحتكارات المالية الدولية ، دورها الخطير فى مصر ، وركزت نشاطها فى اتجاهين واضحين هما : حفر قناة السويس ، وتحويل أرض مصر الى حقل كبير لزراعة القطن ، لتعويض الصناعة البريطانية عن أقطان أمريكا ، التى قل ورودها الى بريطانيا بسبب انتهاء سيطرتها على أمريكا ثم انقطع وصولها بسبب ظروف الحرب الاهلية الامريكية .

ولقد عاشت مصر فى هذه الفترة ، تجربة مروعة ، استنزفت فيها كل امكانيات الثروة الوطنية لصالح القوة الاجنبية ولصالح عدد من المغامرين الاجانب الذين تمكنوا من السيطرة على أمراء أسرة محمد على، وساعدهم على ذلك فداحة النكسة التى أصيبت بها حركة اليقظة المصرية .

ان قوة الاحتلال البريطانية العسكرية ، ومؤامرات المصالح

الاحتكارية الاستعمارية والاقطاع الذى اقامته أسرة محمد على باحتكارها للأرض او تقسيمها جزءا منها ، بين أصدقائها ، أو اصدقاء المستغلين الاجانب ، ذلك كله لم يستطع أن يطفىء شعلة النور على الارض المصرية « الباب الثالث من الميثاق »

ان هذه الحقائق ، تضع مشكلة « الارض والماء والانسان » فى مصر ضمن اطارها الحى ، وفى سياقها التاريخى .

وهذه الحقائق ، ناطقة صريحة بصلة المصير بين حل تلك المسألة حلا حقيقيا ، وبين أهداف النضال العربى فى التحرر والاشتراكية والوحدة .

لم يكن ممكنا فى منطق العلم ، حل المسألة حلا حقيقيا وجذريا ، حلا يعيد الارض وانتاجها لمن يسقى الارض بعرقه ، وينتج المحصول بعمله ، وحلا يوصل الماء الى الارض العطشي ، وهى على بعد أميال قليلة من كميات المياه الضائعة ، وينقل الانتاج من براثن الاستغلال الاستعمارى الاقطاعى القائم بمنطق « مزرعة القطن » ليتحول الى انتاج متطور بمنطق توفير مقومات الحياة الكريمة للمنتجين .. الا بتحرير الانسان والارض والماء من قبضة العدو .. قبضة تحالف الاستعمار والاستغلال .

ولم يكن ممكنا تحرير الانسان والارض والماء من تلك القبضة الا بالثورة :

الثورة التى تصفى الاستعمار .. ، كاحتلال عسكرى ، وكسيطرة أو وجود سياسي ، وكتحكم واستغلال أو تأثير اقتصادى اجتماعى .

والثورة التى تصفى الاستغلال .. كمصالح لطبقات رجعية مستغلة، تقوم فى نظم سياسية ، تمثل بدكتاتوريتها ، سلطة تحالف هذه الطبقات مع الاستعمار ، وتقوم فى نظم اقتصادية اجتماعية ، تضع الثروة الطبيعية والبشرية فريسة بيد الطبقات المستغلة .

وليس ممكنا فى منطق العلم والواقع قيام هذه الثورة بوجهيها المتكاملين : التحررى والاشتراكى ، وصمودها ، واستقرارها فى مصر — شأن كل جزء من الوطن العربى — الا فى اطار وحدة الهدف العربى ووحدة الثورة العربية .. الوحدة التى تجسم وحدة الأمة والوطن والمصير ، كما تجسم ملكية قوى الأمة العاملة جميعها كوحدة بشرية ، للوطن وثرواته جميعا كوحدة مادية انتاجية .

ان تلك الحقائق ، لو انعمنا فيها النظر ، فوعيناها ضمن سياقها التاريخى فى اطار الصراع الشامل النابع منها ، فاننا سندرك بيسر ، أن الاستعمار الذى كان قائما فى مصر ، قهرا واستغلالا ، لم يكن مقيما فيها من أجل ماتقدمه لمصانعه من مواد خام فحسب ، ولا من أجل حماية شرايين المواصلات الى مناطق الاستغلال الشاسعة الاطراف فى الهند وجنوبى آسيا فقط ، وانما كان قائما فيها ايضا من أجل الخطة الواسعة الشاملة وهى المحافظة على وجوده وبقائه فى الوطن العربى كله .

ان الوطن العربى كان ولا يزال ، مصدرا للمواد الخام ، التى توفر لمصانع الاستعمار نسبة كبرى من الطاقات التى تدير هذه المصانع ، ومن المواد الخام التى تتحول بالصناعة الى سلع استهلاكية ، ولقد كان الوطن العربى ولا يزال سوقا لبيع هذه المصنوعات ، فتبلغ نسبة ما يجنيه الاستعمار والاستغلال من هذا الوطن ، آلاف الملايين من الجنيهات ، التى تكون دعامة اساسية من دعامات اقتصاد الدول الراسمالية ، ومنبعا وافرا من منابع المحافظة على مستوى المعيشة العالى بين ظهرانى شعوبها .. كما تكون لذلك وسيلة اساسية من وسائل قوته التى يحارب هذه الأمة بها .

من هنا كانت الثورة — وهى فى منطق العلم والتجربة — السبيل الوحيد للتحرر من الاستعمار والاستغلال ، ومن ثم لمواجهة مسألة « الارض والماء والانسان » فى مصر نفسها ، لابد أن تكون فى منطق العلم والتجربة ايضا ، الثورة العربية بهدفها الواحد ، ومنطقها النابع من هذا الهدف .

ان تتبع مراحل النضال والكفاح ، التى تتوج فى احد ابعادها بقيام السد العالى ، انما يؤكد هذه الحقيقة ويدعمها .

لقد وجد السد العالى قبل قيام الثورة .. كأمل ..

أمل الارض العطشي للمياه العذبة التى تشهدها الارض هديرا يضيع فى البحار والارض ، للطوفان مشتاقة .

وأمل اجيال من الفلاحين ينتشرون حول النيل فى رقعة من الارض تمتد شريطا ضيقا بامتدادمجراه ، داعبوا أملهم سنوات طوالا بأن يكون لهم من السد سبيل للأرض والخير والنور .

ولكن هذا الامل بقى فى الارض العطشي ظمأ لم يطفأ ، وبقى فى

نفوس اجيال الفلاحين حنينا لم يتحقق ، حتى جاءت الثورة ، تطفىء العطش وتروى الحنين ، وتحقق الأمانى لاجيال الفلاحين .

وكم من أمل نبتغى الارض العربية عودا أخضر وداعب نفوس ملايين الجماهير العربية العاملة ، أمنية غضة ، وبقى نداءات لا تسمع فى الحقيقة الا كرجع الصدى ، وأمانى ليس لها فى الواقع الحى الا عذوبة الاحلام ، حتى جاءت ثورة ٢٣ يوليو تفتح الآفاق الرحبة أمام الارادة الثورية العربية ، كى تصنع من الاحلام واقعا ، ومن الامانى حقيقة . تنمو بها عيدان الامل الخضر ، لتصبح دوحة اصول تمتد أشجارها ثابتة فى الارض وفروعها مزهرة فى السماء .. أرض الوطن العربى وسماؤه من المحيط الى الخليج .. وبلا حدود .

واذا كانت عهود التحالف الاستعمارى الرجعى فى مصر وحكوماته ، قد حولت نداء الحياة والاحياء ، نداء الارض بقيام السد طلبا للماء .. قد حولته الى اصوات دعاية كاذبة ، وجعلت من هذا الامل بالنور والوفرة سبيلا للتضليل من اجل الحفاظ على الظلام والاملاق فان فجر ٢٣ يوليو من حيث كان يشهد سقوط النظام الذى يمثل تحالف الاستعمار والرجعية ودكتاتوريتهما ، كان فى الوقت ذاته ، ومنذ ذلك اليوم يباشر تعبيد الطريق الى اسوان .. من اجل بناء السد العالى .

ومهما كانت الاشارات الى السد العالى ، التى كانت تتردد فى « خطابات العرش » قبل الثورة .

ومهما كانت الدراسات أو المشروعات ، التى وجدت فى أضابير وزارات عهود ما قبل الثورة ، أو فى اضابير وزارة المستعمرات البريطانية فى تلك العهود .

فان العزم الجاد بالدراسة والتخطيط لاقامة السد العالى يبدأ بقيام ثورة ٢٣ يوليو .

ان مجالات الصراع التى خاضتها ثورة ٢٣ يوليو ، بالشعب العربى كله وفى طليعته ، كانت مجالات تشمل أكثر نواحى الحياة ، وتتطلب بالمنطق الثورى التخطيط وتحديد الاسبقيات .. تمكينا للثورة فى أرضها ، واجلاء لقوى الاحتلال عن الارض ، ووقوفا حازما وحاسما ضد الاحلاف الاستعمارية ، وتأكيدا لحرية الشخصية العربية الثورية ، بالحياد الايجابى وعدم الانحياز على الصعيد الدولى ، وتدعيما للقوة العربية الذاتية ، المادية والمعنوية ، بكسر الستار الحديدى الاستعمارى المضروب حولها ،

وتحقيق الاتصال والتفاعل مع دول الكتل الشرقية ، وعقد صفقات السلاح .. وباصدار قوانين الاصلاح الزراعى والتمصير .

وضمن هذه المهام ، الكبيرة والكثيرة كان « السد العالى » يجد من الثورة العناية والجدية اللتين هو جدير بهما ، فلم يعد الامر دعاية للاستهلاك أو جملا تتردد فى خطابات العرش .

لقد كانت الثورة تواجه مسألة السد العالى بمنطق جديد ، هو منطق انسانى من جهة ، علمى من جهة ثانية ، وثورى من جهة ثالثة .

كان — **أولا** — منطقا انسانيا لأنه كان يحمل نظرة جديدة للملايين من ابناء الشعب العربى فى مصر ، الذين لا يكادون يحصلون من مقومات الحياة ، على ما يحفظ الرمق فى الحياة ، والى الملايين من ابنائهم الذين يفدون الى جحيم حياتهم ، وهى نظرة تتناقض تناقضا كاملا مع نظرة العهود السابقة ، التى اجمل الرئيس عبد الناصر فى خطبة له سنة ١٩٥٤ عناصرها فى قوله :

« وكانت الحكومات السابقة تنظر بملء الارتياح والسرور الى ملايين جديدة من الفقراء تدخل الى جحيم الحياة فى مصر ليكون حظها المرض والعمى ولتضاف الى جيش المتسولين والعجزة الذين يحملون معهم جراثيم السخط والانهيار » .

وكان — **ثانيا** — منطقا علميا ، من حيث انه يقوم على التخطيط وعلى الدراسة والاعداد المخططين ، ولذلك فانه كان من اول الاعمال التى باشرتها الثورة ، اقامة « المجلس الدائم لتنمية الانتاج القومى » فى اكتوبر سنة ١٩٥٢ ولم يكن قد مضي على قيام الثورة الا بضعة اشهر ، وقد أحيل مشروع السد العالى الى مجلس التنمية ، من أجل الدراسة الجادة فى جميع أبعاده ، وأصبحت مسألة السد العالى مسألة تدرس جوانبها الداخلية والدولية ، والانتاجية والتمويلية دراسة علمية تمثل العزم على التنفيذ ، وتخرج هذه الدراسة من أيدى الجهات المتآمرة العابثة ، أجنبية كانت أو مصرية ، التى كانت فكرة السد العالى ومشروعه تتعثر بين يديها ، شأن أكثر مشروعات التنمية الحقيقية فى البلاد التى يسيطر عليها تحالف الاستعمار والاستغلال .

ثم كان — **ثالثا** — منطقا ثوريا ، يرتكز الى عزم الارادة الثورية التى ترفض دون تحقيق المشروع الذى أصبح ضرورة للحياة والاحياء ، اية عوائق ، انها العزيمة التى يرمز لحقيقتها تأكيد الرئيس عبد الناصر فى قوله :

«اننا سنبنى السد ، ونحفر الصخر ، ولو كان ذلك بالاظفار والمعاول»
وهى أيضا العزيمة التى تجلت حقيقتها بالعمل الثورى الجرىء الذى انتزع قناة السويس وريع القناة من قبضة المستعمرين ، ومن جيوب المستغلين المتخمين ليحول القناة الى شريان تجرى فيه قوى الاحرار فى تأييد الثوار، وليحول ريعها نحو تمويل السد العالى باسم خبز الملايين وكرامتهم .. ملايين المستغلين .. الفلاحين والعاملين .

ومنذ أوائل سنة ١٩٥٣ كان مشروع السد العالى يسير على الطريق المخطط العلمى الثورى ، دون أن يقدر احد منذ ذلك الوقت ، ان هــذا الطريق سيكون طريقا طويلا يمضي .. من « بور سعيد الى أسوان » ويمر قبل أن يبلغ لسوان بدروب النضال الكثيرة لمواجهة محــاولات حاقدة ، ماكرة ، متواصلة للحيلولة دون تنفيذه ، أو لجعل تمويل تنفيذه مدخلا لاستعباد شامل وجديد .. فى عصر أصبح يرفض رفضا حاســما الاستعباد ، وفى أمة أصبحت قادرة قدرة حاسمة منذ ٢٣ يوليو ، على احراز النصر فى معركتها ضد تجدد الاستعباد .

ولقد مر هذا الطريق عبر المفاوضات المضــــنية ، الطويلة ذات الدلالات البالغة مع الدول الاستعمارية ، لينعطف بعد ذلك على زاوية قائمة ، انعطافا ثوريا ، فاذا به بتأميم قنال السويس ، وبمعركة النصر فى بور سعيد .. يؤكد أنه اذا كان الاستعمار يريد أن يعيد بتمويل الســد العالى مأساة حفر قناة السويس ، فيقيم سويسا ثانيا ، فان الارادة الثورية العربية ترى غير ذلك ، وهى فى تحقيق ما تراه تزيل بالتأميم معــــانى « السويس الاولى » لتقيم السد بالمعانى الجديدة .. عاليا بالحــرية والكرامة .

منذ مارس ١٩٥٣ قدمت شركة المانية دراسة للمشروع وبرنامجــا لانشائه ، وفى ابريل من العام نفسه جمعت مصر الثورة لجنة من الخبراء العالميين لدراسة المشروع . وفى ١٥ من نوفمبر ١٩٥٤ اجتمعت لجنة من الخبراء الدوليين لدراسة المشروع فى جميع أبعاده وأصدرت فى ٤ من ديسمبر من السنة ذاتها تقريرا اجمع فيه الخبراء على صــلاح المشروع وسلامته فى جميع ابعاده ، وما أن أطلت سنة ١٩٥٥ حتى كان قد تم التعاقد مع عدد من الشركات والخبراء اللازمين للاستعانة بهم فى التنفيذ بعد أن صــار صلاح المشروع وسلامته مؤكدين ، ومنذ هذه الســنة أصبح تمويل المشروع هو المسألة الرئيسية .

وكان تمويل مشروع السد العالى فى جميع مجالات المفاوضــــة

والكفاح من اجل تحقيق قصة أوسع فى احداثها وفى دلالات هذه الاحداث من عملية تمويل المشروع فى أحوال عادية ..

ولم تكن قصة هذا التمويل قصة مالية أو اقتصادية صرفة ، بل كانت قصة هدف أمة ومصيرها بكل ما فى العبارة من أبعاد ومعان .

ان قصة تمويل السد العالى قصة النضال العربى الثورى داخل مصر نفسها ، وعلى نطاق الوطن العربى كله ، وهى بعد ذلك قصة فذة من قصص الكفاح ضد الاستعمار على صعيد عالمى وصورة رائعة من صور التعاون بين دول الكتلة الشيوعية وفى مقدمتها الاتحاد السوفياتى وبين الشعوب المناضلة من اجل التحرر والتقدم مع جميع الناس المحبين للحرية والسلام فى العالم ، وهى القوى التى تكون جبهة عريضة قوية تلتقى مهما تباينت العقيدة والنظم .. على الهدف الانسانى التاريخى الكبير : تصفية الاستعمار .. وارساء قواعد السلام .

ولا تتضح حقيقة معركة تمويل السد العالى ومحاولات الاستعمار الوقحة لكى يجعل منها سبيلا مفضوحا لاغراضه السياسية والاقتصادية والعسكرية والاستعمارية الاستغلالية فى الوطن العربى كله ، ولا تبدو عقلية الاستعمار والمستعمرين والراسماليين الاحتكاريين ونفسيتهم الحاقدة والماكرة .. الا اذا ذكرنا الحقائق الاساسية التالية تجاه هذه المسألة :

الأولى : قيمة المبلغ الذى كان مطلوبا أن يسهم به البنك الدولى او الدول الاستعمارية : امريكا وانجلترا فى عملية تمويل السد العالى ونسبة هذا المبلغ الى تكاليف المشروع كله :

فقد كان تقدير نفقات المشروع كما أعلن فى التقرير الصادر فى ٤ من ديسمبر سنة ١٩٥٤ حوالى ١٢٠٠ مليون دولار تتحمل مصر منها ٨٠٠ مليون ، وتحتاج الى ٤٠٠ مليون دولار من العملة الصعبة .

وكانت تكاليف المرحلة الأولى من مراحل بناء السد تقدر بـ ٣٧٠ مليون دولار تحتاج مصر منها بالعملة الصعبة الى ما يساوى ٧٠ مليون دولار .

الثانية : سلامة المشروع الاقتصادية الكاملة سواء من ناحية مردودة والزيادة التى تثبت على بنائه خلال كل مرحلة من مراحل هذا البناء ، أو من ناحية مقدرة تحمل اقتضاء مصر لمسئولياتها فى بنائه .

او بلغة اخرى : ان بناء السد كعملية اقتصادية كان — حتى بمنطق

المرابين الراسماليين ــ منطق شايلوك ــ عملية مأمونة مضمونة .. الذى يطلب الدين فيها غنى بشهادتهم ، والدين المطلوب بالنسبة لتكاليف المشروع التى يدفعها المستدين أو بالنسبة للمركز المالى لهذا المستدين ــ دين صغير ، بل تافه .

الثالثة : الشروط التى تمثل مزيجا من عملية دى ليسبس وشايلوك ، وتجسمت فى طلبات المستر « بلاك » مدير هذا البنك ، وفى تصرفات امريكا وانجلترا .

وتبدو دلالات هذه الشروط واهدافها عندما نتذكر أن البنك الدولى من الناحية النظرية والدعائية انما هو مؤسسة لمساعدة الشعوب على تنفيذ بعض مشروعات التنمية القومية بشرط واحد فقط هو : سلامة هذه المشروعات فنيا واقتصاديا .

وعلى الرغم من ان البنك الدولى قام ببحوث فنية واقتصادية عن طريق خبرائه الخاصين فأكد خبراؤه سلامة المشروع الفنية والاقتصادية وكفاية اقتصاد مصر على تحمل أعبائه ، وعلى الرغم من تأكيد هذين المعنيين من قبل مدير البنك نفسه شفويا وكتابيا منذ سنة ١٩٥٥ وحتى يوليو سنة ١٩٥٦ فان موقف الاستعمار بدوله وبنكه كان موقفا سيبقى عبر التاريخ وصمة عار فى جباههم كما يبقى بعد ذلك دليلا على أن شراهة الاستعمار ورأس المال وحقده وتآمره على كفاح الشعوب المتحررة المتخلفة لابد أن تنقلب عليه .

لم يخجل عتاة الاستعمار والاستغلال مصاصو دماء الشعوب امام حاجة مصر الى المبلغ الصغير المشار اليه من ان يضعوا خطة وينصبوا فخا يتجسم فيما يلى :

١ ــ أن « يتحالف » البنك الدولى وأمريكا وانجلترا على تقديم القرض الصغير المطلوب .

٢ ــ أن يضع البنك الدولى باسم هذا التحالف شروطا جمعت بين طياتها أهداف ورغبات كل عدو للحرية والتقدم فى الوطن العربى ومثل بالعقلية والنفسية مؤتمرا يضم المسيو دى ليسبس ومالكلى وبلفور وترومان وكايمنصو والعصور المختلفة التى عاش فيها كل هؤلاء وكأنها شروط يطلب الى « خديوى » أن يضع لها مقابل قرض يريده لنفقات بلاطه .

وكانت هذه الشروط الصريح منها والمقنع الذى ورد فى المحادثات والذى جاء مكتوبا فى مذكرات تتلخص فيما يلى :

١ ــ أن تسوى مصر خلافاتها مع الانجليز واسرائيل .

٢ ــ أنه لابد من اجراء استفتاء شعبى لابداء الرأى فى المشروع ، لانه لا يوجد فى مصر برلمان .

٣ ــ ان يتيقن البنك الدولى أن القروض التى ستنالها مصر من انجلترا وأمريكا ستستمر ولا تنقطع .

٤ ــ على حكومة مصر ان تتفاهم مع البنك الدولى حول كل برنامج للاستثمار .

٥ ــ تتفاهم الحكومة مع البنك حول ضبط المصروفات العامة .

٦ ــ لا يجوز للحكومة المصرية اى تعاقد على دين خارج أو توقيع اتفاقات على أى مشروع قبل التفاهم مع البنك الدولى .

٧ ــ أن تكون ادارة مشروع السد العالى خاضـــــعة للاتفاق مع البنك .

٨ ــ هذه الاتفاقات بعد ذلك خاضعة لاعادة النظر اذا ما حدثت أى ظروف استثنائية .

وبتدقيق النظر فى هذه الخطة بجميع عناصرها يتضح مدى التآمر الاستعمارى الاستغلالى من جهة ، ويتضح مدى جهله بتطور التاريخ ، وبحقيقة ما كان قد قام فى الوطن العـــربى بالذات مع فجـــر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ولكن هذا التآمر واللجوء من أجل تنفيذه الى أخس الاســـاليب وابعد الوسائل عن الشرف يبدو فى الحقائق التالية :

أولا : سحب هذا التحالف الاستعمارى عروض المساعدة بالقروض الفريق منه تلو الفريق .. بصورة مفاجئة .

ثانيا : التبريرات الكاذبة والزائفة التى قدمها كل فريق منهم فى تبرير سحب العرض .

ثالثا : المحاولات المستعمرة لعرقلة تنفيذ المشروع ، وفى مقدمتهـــا اثارة الوقيعة بين السودان والحبشة وأوغندا ودول أخرى من جهـــة

وبين الجمهورية العربية المتحدة من جهة اخرى وافتعال نزاع واختلاف حول مياه النيل لاعاقة تنفيذ المشروع .

لقد رمى الاستعمار والصـــــهيونية والعملاء كل ما يملكون من ثقل لينتصروا فى معركة تمويل السد العالى ، سواء بقبول شروطهم والوقوع فى شراكهم أو فى منع تنفيذ المشروع .

وفيما بين ١٩ من يوليو الى ٢٦ منه عام ١٩٥٦ وهى الايام التى كان العالم يشهد فيها ويسمع عملية سحب العروض تعلنها أمريكا فى يوم ١٩ ثم تتلوها انجلترا ويتبعها البنك الدولى .

فى هذه الايام كان التاريخ ينصت منتظرا ، وفى ٢٦ من يوليو ١٩٥٦ سمع التاريخ الجواب يعلنه جمال عبد الناصر باسم الارادة الثورية فى الأمة العربية كلها عند ما أعلن تأميم شركة القنـــــال فأعاد القنـــال الى اهله واستخلص ريعه من قبضة اللصوص ، وفضح دوافع الاستعمار واهدافه من خطته ومؤامراته فى محاربته لمشروع السد العالى ، كما فند الاكاذيب والمزاعم التى برر بها المستعمرون سحب عروضهم .

واندلعت المعركة .

اندلعت المعركة .. وجاءت فى اندلاعها وفى مسيرها ونتائجها تؤكد الحقائق الكبرى ، وتضع « السد العالى كمشروع وتمويل » فى مكانه المحدد والمحدود داخل نطاق القضية والمعركة .. القضية العربية والمعركة العربية .

فجاءت المعركة ، تؤكد بالقوى التى اشتركت فيها ، وبالاغراض والدوافع والمصالح ، التى كانت وراء كل منها وحدة القضية والمعركة .. وحدة يبدو فيها أن معركة التقدم الجاد بالبناء الحقيقى ، فى كل قطـــر عربى ، انما تعتمد على معركة النضال الجاد لتحرير كل الوطن العربى، كما تؤكد أن المعركة الاقتصادية هى ايضا المعركة السياسية ، وكلاهما مرتبط بالمعركة القومية تؤكد المعركة فى وحدتها ، هدفا ونضالا ، وقوى مناضلة .

انهم ارادوا من المؤامرة والخطة ، اللتين حاولوا تنفيذهما بمفاوضات القرض الهزيل ، ثم باعلان سحب العرض المفاجىء :

● أن يحققوا استسلاما وتسليما جديدين ، للاســـتعمار البريطانى الذى كانت سياط المناضلين تلهب ظهره فى أرض الوطن .

● وان يحققوا استسلاما وتسليما جديدين للاستعمار الصهيونى الغازى ، اعترافا بواقعه ، القائم باسرائيل وصلحا معها ، هذا ، وكل ماهو حق وكرامة ، ومصلحة وارادة ورسالة فى حياة العرب يأبى ذلك .

● وان يحققوا به انقلابا لثورة ٢٣ يوليو على نفسها تنحدر به الى مستوى الانقلاب السياسي ، وتنحصر به فى النطاق الاقليمى .. وجماهير الأمة العربية كلها تلتف حول ثورة ٢٣ يوليو بصفتها ثورة لا انقلابا ، عربية أم ، لا اقليمية مصرية .

● وان يكبلوا بسلاسل الاستعمار والاستغلال ، والسيطرة والنفوذ ، من جديد ، امكانيات الانطلاق على أى بعد من ابعاد الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر ، هذا وكان شعبها بالثورة قد انتزع منهم انفسهم هذه الامكانيات واصبح بالحياة مستعدا للدفاع عنها .

بل لقد ارادوا .. ماترددوا فى ان يقولوه بصراحة . ثم انفضح ماكان لديهم أملا يداعب نفوسهم المريضة ، وهدفا تسعى اليه عقولهم المتحجرة ، ارادوا أن يتنازل عبد الناصر عن مكانه فى قيادة ثورة أمته وشعبه ، وأن يمزق بتنازله وبيديه كل صفحة من صفحات سفر الثورة الخالد ، الذى خطه بآمال تلك الامة وارادتها ، وفى سبيل هدفها ومصلحتها .

كل هذا ، وكله عزيز عزة الحياة والحرية والشرق .. ارادوا ان يشتروه .

وكل هذا .. وهو مضمون الحياة ومحتوى الحرية ومعنى الثورة .. ارادوا أن يحققوه .

ولقد ارادوا .. فى مفاهيمهم التى لاتعرف من معانى الحياة الا البيع والشراء ، ومن قيمها الا الجنيه والدولار ، بعقلية الراسماليين الاحتكاريين المرابين ان يشتروا ذلك كله ويحققوه ، بماذا وكيف ؟

بوعد — بقرض — حقير عند ما يريدون أن يوقفوا دفع اقساطه ، ليوقفوا أعمال البناء ، بل ليحولوا ما يتحقق منه الى ركام .

كل هذا ارادوا أن يشتروه ويحققوه ، بدفعة على الحساب غير المضمون« تبلغ ٧٠ مليون دولار » « ٢٥ مليون جنيه » وهم الذين ينهبون من ريع قنال السويس وحده فى كل سنة ٣٥ مليون جنيه لايعود علينا

منها الا مليون واحد ؛ وينهبون من ثروات الامة العربية وعمل جماهيرها ، ما يبلغ الآن ملايين الدولارات كل عام .

كل هذا أرادوا أن يشتروه ويحققوه مقابل مايقدمونه من أمل كسيح، محفوف بالمخاطر ، فى توفير شيء من الخبز لشعب اثبت عبر التاريخ أنه يأكل ليعيش كريما ، بل يجوع ليعيش حرا . فلا يساوم بمنطق من يعيش ليأكل .

هذا ما أرادوه من « السد العالى » .. وهو غير هذا ، الذى به ومنه أردناه ، فكان أمرا طبيعيا ان يأخذ « مشروع السد العالى » مكانه المحدد والمحدود فى المعركة ، وكان طبيعيا أن تخوض جماهير الامة العربية معركة احباط ماأرادوه ، وتأكيد ماأردناه ، ليصبح قيام السد العالى كما تريده هذه الامة قلعة من قلاع التقدم والقوة الذاتية ، اللذين هما طريق الامة العربية ، نحو هدفها بل هما ايضا بعض مضمون هذا الهدف .

وفى المعركة ، فى مواجهة العدوان والمعتدين ، وقفت قوى الحق والخير :

كان التحالف الاستعمارى الصهيونى الرجعى يقف فى جهة .. قوة معتدية مستغلة غاشمة ، ضمت تحالفها غير المقدس دول الاستعمار ، وربيبتها اسرائيل ، والرجعية العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية بحكامها وطبقاتها .

وكانت القوى الاجتماعية العربية العاملة ، جماهيرها فى مصر الثورة طليعة فداء ، وعبد الناصر فى القاهرة قائد أمة ومصير ، والى جانبها الدول والشعوب المحبة للسلام ، تقف فى الجهة الاخرى .. قوة حق وحرية وتقدم .

ومن أجل أن يقوم السد العالى ، كما تريد الارادة والمصلحة العربية ان يقوم ، كان لابد من أن ينتظر قليلا .. كى يسحق العدوان ، وتصفى المؤامرات والمشروعات الاستعمارية الصهيونية والرجعية .. وتقلم اظافر التحالف ، الذى يضعها ويحاول تنفيذها .

وأصبحت بور سعيد رمزا للمعركة الشاملة والحاسمة .

ودخل بالنصر ، اسم بور سعيد خالدا ، يؤكد انتصار الارادة العربية الثورية على العدوان والمعتدين .

ولم تكن المعركة والنصر ، تجربة قاسية شاملة اكتشفت فيها

الامة العربية امكانياتها فقط واكدت وحدتها فحسب بدماء الفداء فى بور سعيد ، والنيران المشتعلة فى آبار البترول فى المشرق ، وأصوات القوى الاجتماعية العربية العاملة التى ارتفعت فى كل بلد عربى ضد العدوان تقول .. سنقاتل سنقاتل يا عبد الناصر ـ وانما كانت معركة ونصرا لهما أثر عالمى ..

« ان الاستعمار فى معركة السويس كشف نفسه ، وكشف قواعده ، وكشف أعوانه ، ولقد كان التحول الرائع فى المعركة نقطة فاصلة فى حركات التحرير .

ان الشعب المناضل الذى كان يواجه الطغاة الكبار وحده : لم يعد وحيدا وان الذين تجمعوا ضد شعبنا ليعزلوه ، وجدوا أنفسهم فى عزلة عن الدنيا كلها ، على حين وقفت شعوب العالم كلها مع شعبنا تشد أزره، وتلوح له بأيديها تحية له ، وتضامنا معه .

ان الهزيمة المريرة التى منى بها الاستعمار فى حرب السويس أنهت عصر المغامرات المسلحة .

وان نهاية هذا العهد البغيض بالنسبة لكل شعوب العالم تحققت بفضل نضال شعبنا » .

الفصل العاشر من الميثاق

فلقد سقط مع العدوان والمعتدين ، ومع « ايدن » و « جى موليه » و « بن غوريون » .. سقط العدوان كوسيلة من وسائل الاستعمار والاستغلال فى ضرب كفاح الشعوب المتحررة المناضلة .

ولقد ثبت بالتجربة الكبرى ، أن كل الشعوب المغلوبة على أمرها فى نفسها طاقات كاملة لا حدود لها ، وانها تقدر على الثورة .. بل ان الثورة هى طريقها الوحيد .

واذا كان العدوان ومعركة الانتصار على العدوان ، قد أخرت العمل والبناء فى اقامة السد العالى ـ مؤقتا ـ فانها قد عبدت الطريق حتما أمام النصر العربى الهائل فى الجزائر ، وهزت دعائم الاستعمار وعملائه ، واركان الرجعية العربية الملتفة حولهما ، فى كل جزء من أجزاء الوطن، ثم اتاحت الظرف الذى الغى اتفاقية الجلاء .

وبالغاء اتفاقية الجلاء وكل اثر للوجود الاستعمارى فى أرض الكنانة، تم الظرف الذى استعاد به الشعب مئات ملايين الجنيهات ، التى كان

المستعمرون قد نهبوها من ثرواته وعرقه ، وكدست فى ممتلكات وعقارات وثروات « يمتلكونها فى مصر » .. فكانت بعض نواة راس المال الذى اصبح بالقطاع العام ملكا للشعب ، ودعامة من دعامات الانطلاق نحو البناء الاشتراكى .

وبالارادة العربية الثورية .. التى واجهت العدوان فانتصرت عليه واحبطت بالنصر ، الاغراض والاهداف الاستعمارية التى كان العدوان هو طريق الاستعمار والاستغلال فى بلوغها وتحقيقها بقيادة بريطانيا .. بتلك الارادة نفسها ، وبعزم زاده النصر مضاء ، وبوعى زادته معركة النصر اتساعا وعمقا ، واجه شعبنا ايضا ، الاغراض والاهداف الاستعمارية الصهيونية الرجعية نفسها فى صيغة جديدة وبقيادة امريكا الصريحة .. مجسمة فى مشروع ايزنهاور ، فحطم شعبنا الخطة الجديدة والمشروع الذى جاء « بنظرية الفراغ » ينطوى عليها .

واذا كان التحالف الاستعمارى الصهيونى الرجعى ، قد حقق بمشروع ايزنهاور بعض النجاح فى الأردن ، فان ماهو أهم من ذلك ، أن معركة مواجهة مشروع ايزنهاور التى كشفت بها الرجعية العربية سافرة عن « وجهها العميل للأمريكى القبيح » قد حددت للقوى العربية الثورية ، معالم الطريق ومنطق النضال الثورى فى السير عليها .

واذا كان ذلك كله قد اكد ان الوحدة والاشتراكية .. بالثورة العربية الشاملة الواحدة ، ممكنة وواجبة فانه ايضا قد اعاد تعبيد الطريق ، صلبة ، أمام بناء السد العالى وبناته .

واذا كانت عودة قناة السويس الى اصحابها الشرعيين ، والى ابناء الذين حفروها فى الرمال وهم يسقون الرمل بالعرق والدموع والدماء .. قبل ان تمر المياه المالحة من المتوسط الى الاحمر ، لتغسل أمواجها المتدافعة آثار العرق والدموع والدماء .. اذا كانت هذه العودة قد اضافت للدخل مبالغ بالعملة الصعبة يزيد مقدارها فى السنة الواحدة عن « قرض الاستعباد والاستعمار والعدوان » الذى سحبوه . فمما لاشك فيه أن المعركة والنصر قد فتحت الطريق أمام «أحمد البور سعيدى» كى ينتقل بمتفجراته وخبرته من بور سعيد الى اسوان ..

ومما لا شك فيه ان المعركة والنصر قد فتحت الطريق الطبيعى الصحيح للتعاون الايجابى المثمر بين الامة العربية والاتحاد السوفيتى من أجل بناء السد .

كان الاتحاد السوفييتى قد عرض استعداده للاسهام فى تمويل السد قبل ذلك ، وحدث هذا عند ما طلب القرض الذى تقـــدمت به الجمهورية العربية المتحدة أمام سلطات البنك الدولى ، وعند ما كانت عروض الاسهام فيه ، الأمريكية والانجليزية ، تصاغ لتكون مع شـــروط البنك خطة الاستعمار والاستعباد الجديدين .

وفى يوم الخميس ٢٣ اكتوبر سنة١٩٥٨ أعلن خروشوف فى احتفال كبير يقام فى « الكرملين » على شرف المشـــير عبد الحكيم عامر — أن الاتحاد السوفييتى قد قرر ان يقدم حكومة الجمهـــورية العربية المتحدة قرضا قيمته ٤٠٠ مليون روبيل اى « حوالى ٣٥ مليون جنيه » اسهاما منه فى تمويل مشروع السد العالى .

وفى ٢٧ ديسمبر من السنة ذاتهـــا كان اعلان توقيع اتفاقية هذا القرض صفعة جديدة فى وجه التحالف الاستعمارى الصهيونى الرجعى ، ولطمة تهوى على وجه دوله وقادته .. ومصالحه وسياسته .

وهكذا .. انفتح الطريق ، من بور سعيد الى اسوان .. أمام البناة وأمام البناء ، وسار عليه البناة جادين مسرعين .

وانطلقت عليه الآلات والخبرة أصدقاء متعاونين .

وقدم فتى بور سعيد يسير على الطريق .. « من بور ســـعيد الى أسوان » فكان حقا بطلا فى المعركة ، وبطلا فى البناء .

الفصل السادس

امام السد

بحيرة « ناصر » ومملكة النساء

« لئن كانت التزامات التعمير والعمل من أجل الرخاء الانسانى ، قد اقتضت تنفيذ مشروع السد العالى على النيل ، فان هذه الالتزامات لم تمنعنا من التفكير فى انقاذ جزء من أهم ماورثناه من تراثنا ، وما تراثنا الا جزء من التراث الانسانى الكبير »

جمال عبد الناصر

أمام السـد

بحيرة الماء ، ومملكة النساء

أمام السد .. تمتد آثاره ..

بحيرة رحبة .. تغمرها بالنصر آلاف من الاميال المربعة بالماء .

ومعبد .. يقف فيه ملك آله ، أحب زوجته فرفعها الى مصاف الآله وهو اليوم مع زوجته ينتظران الانقاذ .

ومملكة غريبة .. حكمت « لقمة العيش » أن تحكمها النساء ، وهن اليوم بالفرحة والوفرة يهجرون المملكة .. فى ركاب الرجال ..

أمام السد .. تمتد آثاره ..

الحياة الجديدة فى انطلاقها الذى لا يعرف من أجل التقدم حدودا يتطلب أن يغمر الماء معالم حياة قديمة .. رائعة وعريقة .. فتطالب بحل لهذا التناقض .

والثورة من أجل الحياة الجديدة بالتقدم قامت ، ولا بد لها فى منطق التقدم واحترام الحياة من تراث حضارى يحل التناقض .

وامام السد ..

تواجه الثورة التناقض ، تضع امكانياتها وتناشد الانسانية صاحبة كل تراث حضارى اينما كان — أن تضيف الى الامكانيات شيئا من أجل الحل .. وفى سبيل التراث .

ويعلن الرئيس جمال عبد الناصر فى النداء الذى وجهه الى هيئة اليونسكو :

« اننا ونحن نبنى السد العالى توفيرا للرخاء لأبناء الشعب ..

شعب الجمهورية العربية المتحدة لا نستطيع ان ننسي حضارة الانسان التى استقرت فى بلاد النوبة العريقة ، الخالدة » ..

أمام السد ..

ستتكون بحيرة «ناصر» لتحجز مياه النهر العظيم فيها الى منسوب ١٨٢ م ولتخزن ١٥٧ مليار متر مكعب فتكون بذلك أعظم بحيرة صناعية فى العالم .

ولو أفرغنا فى جوفها مياه بحيرات التخزين الكبرى الثلاث فى العالم : بحيرة كاديفز فى أمريكا وبحيرة مايبور فى اليابان ، وبحيرة سيرمونسو فى فرنسا لما امتلأ من جوفها أكثر من نصفه ..

مسطح الماء فيها نحو ٥٠٠٠كم٢ أما طولها الذى يمتد من السد العالى حتى بلاد السودان فيبلغ ٥٠٠كم٢ ومتوسط عرضها يتردد بين ٨ و ١٠ ك مترات .. وهى تمتد فى أرض السودان حتى مدينة كوشيا .

وكان ضروريا من أجل استكمال « الصورة » فى جميع أبعادها ان انطلق الى ما وراء السد .

وكنا فى الساعة الخامسة صباحا قبل الفجر فوق خزان أسوان نمتطى الزورق البخارى الطائر « الهيدروفيل » الذى ينقلنا فى هذه الرحلة .. بسرعة العصر ذهابا وايابا فى يوم واحد .

وكانت المياه فى خزان أسوان تتلألأ مع خيوط الفجر تحت ومضات النجوم المتثاقلة وتتثاءب لتودعنا الى نهار مشرق جميل ، وقد لاحت تحت سطح الماء قمم الصخور فى الجزيرة المقدسة « فيلة » التى غمرتها مياه الخزان فلم تترك منها ما يدل عليها سوى تلك الرءوس الصخرية تلوح هنا وهناك تحت الماء كأنها لا تزال متعلقة بخيوط من أمل انقاذها من الموت غرقا فتنادى بضرورة الاسراع فى ذلك .

ولقد تقدم بالفعل مهندس عربى هو « عثمان رستم » بتصميم لانقاذ هذه الجزيرة المقدسة وآثارها قدرت تكاليفه بمبلغ ٢ر١٢٢ر٠٠٠ جنيه استرلينى وينتظر أن يبدأ تنفيذه قبل عام ١٩٦٨ لتخرج « فيلة » بما تدخره من آيات الفن الفرعونى والبطلمى .. الى النور والهواء .. من جديد .

لقد أفقنا من روعة جزيرة (فيلة) على هالة من أنوار وهاجة تنبعث بشموخ وكبرياء فتحول أواخر الليل بالانعكاسات على الصخور الى نور آلهى يبعث فىالنفس نشوة ويهز الانسان هزا عميقا ليقول .. تنبهفأنت فى الموقع المقدس .

واذا كانت للسد العالى روعته التى تبهر الناظر اليه فى النهار ، فان روعته فى الليل أو فى هداة الليل قبيل الفجر على وجه التحديد تتحدى مشاعر الفنان بمقدار ما تلهمه .

واتجهنا نحو مدخل (كلابشة) وكانت الصخور تأخذ فى الارتفاع والنيل يأخذ فىالضيق والصمت الحالم يرنو على المكان لولا صوت المحرك البخارى الذى يوقظ الطبيعة من سباتها العميق كى تستعد لاستقبال صخب المياه والحياة التى ستدب فى المنطقة بعد اتمام السد العالى .

وبدات الشمس ترسل طلائع خيوطها لتنتشر علىالبر الشرقى فتدب الحياة فى البرين الشرقى والغربى ، وتظهر بعض الشجيرات بين رءوس الصخور كأنها بعض كهنة المعابد الكثيرة المنتشرة فى بلاد النوبة ، وقد استيقظت لتوها تمجد الآله أمون ، وتقدم له التراتيل والترانيم .

وكنا بهذا قد قطعنا مسافة ٢٠ ك م جنوب السد ، واصبحنا فى أول منطقة للآثار أعدت للانقاذ على البر الغربى من النيل ، وتشمل هذه المنطقة معبد قرطاسي الذى انقذته مصلحة الآثار المصرية فى عام ١٩٦٣ ومعبد بيت الوالى والعمل فى انقاذه قائم على قدم وساق يتم خلال الاشهر القليلة القادمة ، وكان هذا المعبد قد حول الى كنيسة فى صدر العصر المسيحى ، وبقى كذلك حوالى ٧٠٠ سنةغير ان الحجرات المحفورة فى الصخر لم تستخدم للعبادة وابرز ما فيه من آثار مسيحية صليبان قبطيان محفوران حفرا عميقا فى أعمدة البوابة الوسطى .

اما المعبد الثالث فهو معبد كلابشة ، الذى قامت بنقله من مكانه الأصلى الى مكان قرب السد بعثة من قبل حكومة المانيا الغربية ، وقد بلغت تكاليف نقله حوالى ٦ بلايين مارك المانى ، ولم تنقطع زيارة السائحين اليه طيلة مدة العمل فيه أما أبوابه فستفتح لاستقبال السائحين كما كانت من قبل فى ١٥ مايو عند تحويل المجرى ..

وعند وصولنا الى « جرف حسين » كانت الشمس قد غمرت المكان بأشعتها الذهبية ، وتململ ركاب الهيدروفيل فى أماكنهم ليقتربوا من النوافذ المطلة على اراضي النوبة ذات التاريخ الخالد .

وتبدأ عند « جرف حسين » منطقة الآثار الثانية التى ساهم العالم فى انقاذها ، وتشمل هذه المنطقة معابد « الدكة » « والمحرقة » « ووادى السبوع » ... هذا منطقة يمتد عمر الآثار فيها من عصور ما قبل التاريخ الى الدولة الوسطى فى مصر الفرعونية ..

اما معبد « الدكة » ومعبد « المحرقة » فقد قامت مصلحة الآثار بفكهما فعلا ونقلتهما ريثما يتم تركيبهما مرة أخرى .

واما وادى السبوع فيقع فيه معبد رمسيس الثانى ، وقد كان الطريق اليه بعيدا عن النيل أما اليوم فانك تشهد فيه تماثيل أبى الهول ذات الرءوس الأسدية التى تنتشر على جانبى الوادى وهى غارقة الى أعناقها فى الماء ، وستبقى كذلك اكثر أوقات السنة .

ومعابد رمسيس الثانى التى ترصع بلاد النوبة تكاد تكرر بعضهـا بعضا بنقوشها وقصصها الا ان رمسيس أضاف فى هذا المعبد قائمة بعدد ابنائه وهى تشمل ١٧٠ ابنا منهم ١١١ أميرا وقد بدىء فعـلا بانقاذ هذا الأثر العظيم .

ومع المسير الى الجنوب على البر الغربى أيضا تقوم منطقة الآثار الثالثة وفيها معبد « عمدة » ومقابر « عنيبة » .

ومعبد « عمدة » الواقع فى منتصف المسافة بين اسوان ووادى حلفا هو معبد اقامه امنحوتب الثانى ويعتبر أدق هذه المعابد من الناحية الفنية ، وقد استخدم هذا المعبد كنيسة مسيحية وغطيت نقوشه بالملاط ثم أقيمت فوقها من جديد النقوش المسيحية .. غير أن الفن الفرعونى مازال محتفظا بتفوقه الواضح ..

ويتم انقاذ منطقة عنيبة الغنية بالمقابر والآثار فى ١٩٦٦ لأنهـا لا تتأثر بمياه النيل حتى ذلك التاريخ ، لبعد موقعها عن مجراه .

وامام « عنيبة » على الضفة الشرقية تقوم معابد « الدر » وفيها معبد صغير لرمسيس الثانى ، واما منطقة ابريم فهى أثرية ، ولكنها ليست بذات اهمية كبرى كما انها ليست مدافن بالمعنى الضخم لهذه الكلمة ، بل هى أضرحة سجل فيها حكام النوبة اسماءهم لتخليد ذكراهم ، اذ لم يكن فى استطاعتهم أن يشيدوا المعابد الفخمة لحسابهم الخاص ..

وتمتاز منطقة « ابريم » بجمال منظرها الطبيعى .. فترى امامك على جانبى النهر أشجار النخيل مغروسة فى النيل بمسـاحات واسعة وتمتد مسافات شاسعة ، وتظهر من اشجار النخيل أعاليهـا على ارتفاعات متفاوتة فكأنها اسرة تطلب النجدة او تطل برءوسها فوق سطح الماء تودع الحياة وهى ضارعة تطلب الرحمة من السماء ..

وينتبه المسافر الى الجنوب فى هذه المرحلة على صـوت التحيات

المتبادلة بين عمال المراكب — غادية شمالا وجنوبا — فى النيل ، ويبدو تبادل المسافرين للتحية كأنهم تركوا الشاطىء ليتخلص لحظة من نظراتهم العميقة فى آثاره وثرواته ونخيله !

ومنطقة النوبة — كما قلنا — غنية بآثارها — سواء أكانت من العصر الحجرى أم كانت حصونا فرعونية عسكرية — تدل دلالة واضحة على تقدم الوعى العسكرى بما فيها من المعابد الاغريقية والرومانية ، وما لا يحصي من المقابر والاضرحة التى تمثل كل العصور مارة عبر العصر العربى الاسلامى ، وممتدة الى وقتنا الحاضر وهى تتفاوت بين الضريح الصغير والمعبد الضخم ..

فاذا بلغت ابا سمبل وقفت أمام اثر من أعظم المعابد وأروعها ، تتجلى هذه الروعة والضخامة والدقة بصورة واضحة فى المعبدين اللذين يعترف بروعتهما الخاصة جميع علماء الآثار فيقولون :

« لو لم يكن فى النوبة غير معبدى أبو سمبل لكفى » .. ان فيها تمثال رمسيس الثانى بوجهة الجميل الذى قيل فيه :

(ان اكمل وجه نقله الينا الفن الفرعونى هو وجه رمسيس الثانى ، بل هو اجمل الوجوه فى التاريخ) .

وقد ادركت حكومة الجمهورية العربية المتحدة ان انقاذ هذه السجلات التاريخية ، وهذه الكنوز فى أراضي النوبة سيكلفها المبالغ الباهظة التى لا تستطيع حصرها ولا تستطيع القيام بها بمفردها ، فطلبت المعونة من منظمة اليونسكو التى استجابت لمطالبها وبدأت بحملة عالمية فى ٨ مارس سنة ١٩٦٠ فوجه مديرها النداء التالى :

« ان تراثا حضاريا من أنفس ما صنعته يد الانسان على وجه البسيطة يوشك ان يختفى. وليس من السهل تحديد الاختيار بين المحافظة على هذا التراث وبين رفاهية شعب فى ظل احدى حضارات الانسان الكبرى كما انه ليس من السهل الاختيار بين المعابد والمحصولات الزراعية .

وهذه الآثار ليست ملكا لبلد واحد أو لعدد من البلاد ، وانما هى ملك للعالم كله ، فهى تراث مشترك يحمل فى ثناياه رسالة سقراط وسيمفونيات بتهوفن ، وهى كنوز عالمية يجب ان نحميها وأن حمايتها فى حاجة الى جهود عالمية ..

وقال مدير اليونسكو : ان هذ النداء انما هو دعوة الى مختلف بلاد العالم للمساهمة فى ذلك العمــــل بأموالها وخبرائها الفنيين ، وليست اليونسكو الا وسيطا بين هذه البلاد وبين الجمهورية العربية المتحدة .

وقد استجاب العالم لهذا النداء ، فقــدم مبلغ ٣٠ مليون دولار من الهيئات الدولية لانقاذ الآثار خلال السنوات الأربع الماضــية « احصائية اليونسكو » كما قدمت الكويت مبلغ ٣ ملايين جنيه استرلينى على شكل قرض دون فوائد لصندوق تمويل آثار النوبة .

والحقيقة أن العبء الأكبر وقع على عاتق الجمهـــورية العربيـــة المتحدة ، فقد قدمت مبلغ ١١ر٥٠٠٠٠٠ جنيه مصرى عدا القيام بأعمال الحفر والبحث عن الآثار ، فقد كان لجامعتى القاهرة والاسـكندرية أكبر نصيب فيها ، كما قام مركز تسجيل الآثار المصرى بتسجيل المعابد تسجيلا علميا دقيقا كى يمكن اعادتها بصورة علمية صحيحة ، وقد ساهمت فى هذه العملية هيئات علمية أخرى .

اما عملية الانقاذ ، وهى أصعب المراحل واخطرها فقد كانت سباقا مع الزمن مع تحمل للحرارة القاتلة ، وهذه الصعوبات برغم خطورتهـــا لا تقف فى طريق المهندسين والفنيين والرسامين والعمال العـــرب الذين يواجهون عملية انقاذ تراثية هى انقاذ معبدى « أبو ســـمبل » فى أقصي الجنوب .

لقد انتهيت من تسجيل ملاحظاتى هذه وافكارى على صوت المرشدة السياحية وهى تعلن أننا وصلنا الى معبدى أبى سمبل .

واستقبلتنا تماثيل رمسيس الثانى الأربعة رابضة فى حضن الجبل الأصم تطل علينا من عليائها فى عز وكبرياء ، وفى نظرة لا تخلو من الغرور والحقيقة أن رمسيس الثانى يستحق هذا المجد وهذه الكبرياء فآثاره اجمل وأكثر الآثار المنتشرة على طول الوادى .. بتماثيله الضــــخمة ومعابده المتناثرة ونقوش ورسوم قصصه الحربية وانتصاراته الخارقة .. وهو يزهو بعربته الحربية الشهيرة حيث يقف معتدا أو يجلس معتزا وقد جمع فوق راسه التاج الموحد يعلن انه يبســـــط نفوده على الوجهين البحرى والقبلى وبلاد النوبة ..

ويقف الانسان أمام خلود هذا الأثر الحجرى ، وهذا الجبـــل الذى يحميه ليجد فجأة أن الزمن قد انتصر على رمسيس وعنجهيته فى فترة من

الفترات ، فهشم له راس أحد التماثيل ، وقضي على جمال تناظر التماثيل الأربعة على طرفى باب المعبد .

وتستقبلك القاعة الكبرى فى المعبد بتماثيلها الفخمة العظيمة ثم تليها القاعة الثانية حيث يقف المتفرج مبهورا أمام النقوش الجميلة الناطقة وهى تصور لك وتنقلك الى ساحات معـــــركة (قادش) وتتركك تعيش المعركة بجوها وظروفها ودقتها بحذافيرها ..

ولعل هذه اللوحة أول لوحة فى التـــاريخ تصــــور لنا التوزيع الاستراتيجى للقوات المحاربة وهى تقوم بتوزيع متقن فى كلا الجانبين ، وتظهر أمامك منطقة التلال يكمن خلفها الجنود المتحفزون حتى اذا ما أزفت الساعة باغتوا عدوهم بخفة ورشاقة واطبقوا عليه .

وقد كان رمسيس ذكيا حقا ، فهو لم ينتصر فى معركة قادش من بادىء الامر واذا كان قد انتصر فانه لم ينتصر بسهولة ، ولم ينس هـــذه الحقيقة فيترك القصة تسير بك على الجدران ، وتنقلك رسومها الجميلة الى الملك رمسيس وقد أحاطت به قوات العدو من كل جانب وحاصـــرته حصارا مريرا ثم كيف تمكنت من قطع الطريق عليه فلم يتمكن من الاتصال بقواته .. وبعدها ترى مشهد القبض على الجواسيس وضربهم ضربا مبرحا .. وتظهر الامدادات متجهة نحو الملك المحاصر ، ويتم بقـــدومها النصر ..

واذ ذاك نرى رمسيس يمتطى عربته الحربية التى اشتهرت فى التاريخ المصرى القديم ولا تزال بجمالها ودقة صنعها تسترعى الانظار .

واذا بلغنا فى السير بداخل المعبد الى القاعة الصغيرة المسماة قدس الاقداس طالعتنا فى صدر القاعة تماثيل ضــخمة ، مهيبة أحداها لآله النيل والآخر لآله النوبة وثالثها لآله اسوان ، وبين هذه الآلهة وفى مكان الآله الثانى من يسار الناظر لهــذا الرباعى المقدس يقوم تمثـــال رمسيس .

ويكشف المعبد عن مدى التقدم العلمى الهندسي والفلكى العظيم الذى بلغه المصريون القدماء فقد شيد بحيث يحدث فى يوم ٢٢ اكتوبر من كل عام — وهو يوم تتويج رمسيس العظيم — تشرق الشـــمس فتدخل اشعتها مخترقة باب المعبد وقاعاته حتى تغمر وجه رمسيس العظيم فى يوم تتويجه ، وقد سألنا الدليل السياحى هناك : هل تراعى هذه الدقة فى علمى الهندسة والفلك عند نقل المعبد الى مكانه الجديد ؟

فقال :

ان المعبد فى مكانه الجديد بعد انقاذه ، سيكون قد تحرك مسافة ٦٠ مترا راسيا الى اعلى ، ومسافة ٢٠٠ متر أفقية الى الغرب ، ونحن نأمل ان يحتفظ لرمسيس باشراق الشمس على راسه فى عيد تتويجه .

واذا تركت معبد رمسيس وسرت فى محاذاة النهر رايت الجبل العظيم قد أصبح محدبا ووقفت على هذا المحدودب وتماثيل « نفرتارى» الجميلة حول مدخل المعبد المعروف باسمها ، ووقفت نفرتارى بين تمثالين لرمسيس كأنها تستظل بظله وتحتمى به من نائبات الدهر ، وقد كان الزمان أرحم بها فلم يشوه هذا المنظر الهندسي المتناظر حول باب المعبد .

ويبدأ المعبد كما اعتدنا أن نشاهده بالقاعة الكبيرة والاعمدة الجميلة، ثم القاعة الثانية وعلى جدرانها ترى دقة الفن وروعته : نفرتارى فى ثياب من الشيفون الملون الجذاب تتماوج ثنياته بلطف ، والصندل المذهب الرقيق بقدميها ، ولأول مرة نرى الثياب الشفافة على جدران هذا المعبد ، أما الحاشية فتختلف ملابسهم بين الواحدة والاخرى ، وينثر الطيب والعطور وكل ما يتعلق بالنساء على جدار المعبد ، وفى قاعة قدس الأقداس ، قاعة الكاهن الاكبر تتجلى قيمة النقوش والرسوم بالمعنى الرمزى الذى توصلنا اليه ... فترى رمسيس ومعه زوجته « نفرتارى » وكل آلهة تقدم لها ما عندها من بسمات الالوهية ، وهى تتقبل من آلهة الحكمة وآلهة الخصب وآلهة كذا .. وتحمل بيديها كل هذه الهبات وتلمسها الآلهة وتباركها ، وفى نهاية المطاف يتقدم رمسيس من زوجته الجميلة نفرتارى ليتوجها آلهة ، وهكذا ترتفع نفرتارى فى معبدها بأبى سمبل الى مصاف الآلهة ..

والحقيقة التى لا تقبل النقاش أن معبدى ابى سمبل جديران بالانقاذ ويستحقان مبلغ ١٨ مليون جنيه واكثر . بهذه الحقيقة كان ينطق رمسيس وتهمس « نفرتارى » قبل أن أودعهما عائدة .. الى اسوان ..

وعند ما دار محرك الهيدروفيل الطائر ليعود بنا الى اسوان عدت بهدير آلاته وسرعة انطلاقه الى العصر الحديث ، والى الحياة فيه بعد أن استغرقت فى الرحلة الى ابى سمبل الحياة القديمة بحضاراتها ومنائر هذه الحضارات .

وهذا الانتقال المفاجىء الذى ننتقل به — فى الوطن العربى بوجه عام وفى مصر بوجه خاص — من أجواء الحضارة القديمة ، الرائعة فى

طبقاتها التى تكون طبقات الارض منذ أقدم تاريخ الحضارات الى ان خيم الظلام على الوطن بانهيار الدولة العربية الاسلامية وبين الحياة كما تقوم فعلا وواقعا على سطح ارض هذا الوطن وفوق طبقات الحضارة المتراصة، انتقال يواجه به الانسان تناقضا مروعا بين ما كنا عليه ، وبين ما اصبحنا فيه .. وهو تناقض يدفع للثورة ويثير العزيمة لاعادة ربط خيط الحياة والحضارة الذى كاد ينقطع فانه يقيم بتلك الطبقات الحضارية المتراصة ، الراسخة ارضا تقف عليها الثورة العربية فى اصالة وقاعدة عليها هذه الثورة راسخة تبنى .

وعلى جناح الهيدروفيل الطائر فى طريق العودة الى اسوان وقد اتجه الفكر نحو الحاضر والمستقبل ... كنت اشهد ذلك التناقض بين الماضي والحاضر — وهو يتجسم فى أرض النوبة — مروعا لا يخفف من معانى السخط على الذين أقاموه ، ومن معانى الرثاء للذين يعيشـــوه الا التطلع للمستقبل الذى يحاول ، وقد طهر الارض من الذين صنعوه أن يضم فى دفء الحياة والحضارة أهل النوبة الذين قاسوه .

وكان هذا التناقض المروع قد تجسم قبل الثورة — فى منطقة النوبة اقسي مما يتجسم به فى اى مكان آخر ، فالظلم والاستنزاف والاستعباد ، الذى تعرف مرارته القوى الاجتماعية العربية العاملة ، وبصفة خاصـــة قطاع الريف والفلاحين منهم بيد الاستعمار والاستغلال والاقطاع كان يقوم فى أرض النوبة وبين أهلها وضعا يبلغ فى عدم انسانيته أن كاد يمتص من المنطقة مقومات الحياة الانسانية .

لقد تحولت هذه المنطقة الى « مملكة النساء » .. وبهذا الاسم كانت معروفة وبه تسمى .. ذلك ان لقمة العيش غير المتوافرة فى المنطقة كانت تفرض — حقيقة لا مجازا — على الاكثرية الساحقة من الرجال فيها ، بل من الذكور قبل أن يصبحوا رجالا — تفرض عليهم الهجرة بحثا عن الرغيف، وجريا وراء لقمة العيش ، وفى اكثر أيام السنة كانت قرى هذه المنطقة تفتقد رجالها الا من كان شيخا أو طفلا ، وتحولت بهذا المعنى الى « مملكة نساء » .

والحكايات والقصص التى يتحدث لك بها بعض أهل النوبة أو غيرهم عن مآسي الحيـــاة فى هذه المنطقة كثيرة ومؤثرة ، والصور التى ترسم البؤس الذى كان يخيم فى ربوعها محفورة فى أذهان الكثيرين من نساء النوبة وصباياها ، ويكاد يكون معروفا شائعا أن الملكات فى مملكة النساء هذه كن وأطفالهن يتوافدن زرافات نحو الزورق الذى كان

يطلق على هذه القرى بين فترة طويلة واخرى يحمل احد رجالهن الغائبين طلبا للرزق وقد عاد يحمل معه أنباء الازواج والآباء والقروش القليلة التى تمكنوا أن يقتطعوها ليتمكنوا من ارسالها خبزا وماء لنساء يمتنع بحكم التقاليد عليهن العمل لينفقوها على انفسهن واطفالهن الصغار .

والى جانب ما يتميز به أهل النوبة من تقاطيع دقيقة جميلة ، ومن سمرة شديدة حلوة فانهم يمتازون أيضا بالنظافة والأمانة وعزة النفس ، واذا كانت الأمانة والنظافة قد حددت للكثيرين من أبناء النوبة طبيعة العمل فان عزة النفس فيهم قد فرضت على أصحاب العمل من الذين يعمل النوبيون فى خدمتهم شروط المعاملة الكريمة .

واليوم ومياه النيل تتحفز لغمر الارض والبيوت فى هذه المنطقة ، فان الثورة التى تطلق بالنصر المياه ، تقيم عن الارض والبيوت بديلا جديدا لتشهد عملية التهجير الجديدة .

واذا كان التصاق الانسان بالارض التى تصبح له بالتراث الطويل وطنا هو التصاق يبدو حنينا انسانيا تلمسه بين المهاجرين من النوبة الى الوطن الجديد فى منطقة كوم امبو فان التطلع للحياة الجديدة واضح أيضا يكاد يخفى بستار التفاؤل معانى الحنين .

واذا كان مؤكدا وصريحا أن النساء من أهل مملكة النساء يرحبن بالتغير الجديد ، شأن الرجال بل أكثر ، فانك تشهد على البواخر التى تتولى عملية التهجير مظاهر المحاولة الانسانية فى نقل رموز الصلة بالديار المهجورة الى القرى الجديدة ، فكثيرا ما ترى على ظهر البواخر غير الناس وماشيتهم حجرا من ضريح ، أو حفنة من تراب ، كأن معنى انسانيا من معانى الثورة العربية المميزة وهى تنقل هؤلاء الناس الى أرض وبيوت جديدة فتنتقل بهم الى عصر وحياة حديثين تحيط عملية النقل للوطن الجديد بجميع الوسائل الممكنة التى تحترم روابط الانسان بالانسان ، وصلات الانسان بالارض والطبيعة اللتين عهدهما وطنا له .

فمنطقة الاسكان الجديدة بالقرب من كوم امبو غير بعيدة عن منطقة التهجير ، بل تكاد بمقياس الطبيعة والمناخ تكون قبلة لها ، والقرى الجديدة تحمل أسماء القرى القديمة ، والاهلون الذين ينقلون وينتقلون يحملون دون اعتراض ما شاءوا من اجزاء البيوت واحجار الديار .

وفى الوضع الجديد سيمتلك المهاجرون من الارض المستصلحة حقولا يزرعونها ويتوجه بعضهم للمصانع يعملون فيها .. ولكنهم جميعا سيعودون مع المساء الى بيوتهم ، بعد أن انتهى عهد « مملكة النساء » .

الفصل السابع

فلسطين

نداء العودة مع النصر بميلاد المارد

ان الأمة العربية بالثورة العربية ..
تنشد السلام فى العالم ، وتسهم فى بنائه وتدعيمه .. ولكن السلام الذى تنشده وتسهم فى بنائه وتدعيمه انما هو السلام بالعدل وبالحق .. وبالحرية والتقدم ، فلا يمكن ان يكون تسليما ((بأمر واقع)) قام فى أرضنا بالعدوان والغدر والخديعة ، واستسلاما لبقائه عدوانا فى الارض، وتهديدا للعدل والحق ، وقاعدة لمقاومة الحرية والتقدم لا فى الوطن العربى فحسب ، وانما فى آسيا وأفريقية بشكل عام .

نداء العـــودة

مع النصر بميلاد المارد

من القاهرة الى أسوان وفى موقع السد بها ..

ومع نبضات الحياة وموجات الوعى التى تنطلق بالثورة بناء للحياة وللانسان .

كان يتردد ، بالعزيمة ومع البناء ، من اعماق الفلاحين والعاملين .

« صوت فلسطين »

وفى الموقع باسوان ما بين النوبة وكوم أمبو .

ومع زوارق التهجير ، وموجات المهاجرين من أهل النوبة الى حياة بالتقدم والرخاء جديدة .

كان ينطلق بالاصرار العنيد من أعماق المهاجرين .

« صوت العائدين »

لقد تردد صوت فلسطين واهلها ـ منذ أصدر الاســتعمار بالغدر والتطفل ، وبلسان بلفور وزير خارجية بريطانيا وعدا بما لا يملك الى من لا يستحق ـ تردد ـ نضالا مشرفا ضد عدو قوى غادر فى معركة غير متكافئة استمرت ثلاثين عاما ما لانت لشعب فلسطين العربى فى الدفاع عن عروبتها قناة ولا عود .

وانذارا صادقا للأمة العربية جميعا بحقيقة الخطر الزاحف ، وطبيعة

الغزو يؤكد : أن الزحف وحقيقة الخطر يتهدد الوجود العربى فلا ينحصر فى نطاق فلسطين .

ثم تردد صوت فلسطين واهل فلسطين خلال معركة المأساة والمهزلة معلنا أن شعب فلسطين يحرم من حقه ويعطل عن واجبه .. فى الدفاع عن الوطن فى احلك ساعات الخطر على الوطن .

ومحذرا أن الذين توكل اليهم قيادة معركة الدفاع عن الوطن ضد الاعداء هم فى حقيقة وجودهم وبمصالحهم من صنع هؤلاء الاعداء وجزء منهم .. فهم فى المعركة متآمرون .

ثم فى أعقاب معركة المأساة والمهزلة تردد صوت فلسطين وأهل فلسطين من العراء الذى أصبح لاكثرية شعب فلسطين لحافا ، ومن الصخور التى اصبحت لهذه الاكثرية فراشا .

معلنا انه لن يعترف بالهزيمة ، ولن يقر الامر الواقع ، وسيقاوم ما وسعه الجهد والطاقة .. وانه يرفض التسليم والصلح والاستسلام ، ويأبى فى مقاومته لها خطط تصفية القضية بالصلح أو بمشروعات الاستيطان .. فمنع الصلح واحبطت مؤامرات التعويضات والاسكان .

ومنذ ذلك الحين جعل شعب فلسطين على قسوة الاوضاع التى يعيشها من « ١٥ مايو » رمزا لذكرى المأساة المهزلة يؤكد أسبابها ويحدد مسئوليات الذين صنعوها فيجدد العزم فى مزيد من العزم ، ووضوح الرؤية على العهد الامين « بالعودة وباسترداد الوطن السليب » .

ومنذ ذلك اليوم « ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ » أصبح صوت فلسطين وابناء شعبها من السائدين :

صرخة الارض المقدسة التى تناشد الشرف العربى وتطالبه بانقاذها من الرجس والدنس الذى أقاموه بالعدوان والقوة والتآمر والخديعة .. اهانة للقداسة فى الارض .

وصراخ اهل الارض المقدسة الذين يناشدون الدول العربية ويطالبونها بالجولة ، وباعدادهم للجولة التى تزيل دولة الرجس الدنس ، وتعيد القداسة والعروبة والعائدين الى الارض .

ومنذ ذلك اليوم أيضا .

وبالتجربة التى تبلورت بالمعركة مأساة ، وبالعبر التى حددتها التجربة بوعى اسباب النكبة ، وعوامل قيام المأساة .

بالرغم .. عن صرخة الارض المقدسة واستقرار الصرخة فى الضمائر الثورية عهدا .. وبالرغم .. عن صراخ العائدين الى الارض ، واستقرار الصراخ فى النفوس الحرة ، عزما فان منطق التجربة والعلم والثورة منطق ارادة المعركة جولة ثانية ، ومنطق توفير مقومات النصر فى الجولة .. كان وهو لا يزال منطقا يؤكد أن طريق عودتنا للوطن وعودة الوطن الينا .. هو طريق القوة .

وان هذه القوة هى القوة العربية الذاتية .

وان القوة العربية الذاتية لابد ان تكون قوة على جميع أبعاد الحياة العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية الدولية .

وان الظرف الموضوعى اللازم لخوض المعركة واحراز النصر فى الجولة بهذا المنطق ، يقتضي أن يقوم طوق القوة العربية الذاتية حول اسرائيل طوقا متحررا موحدا اشتراكيا حقق على طريق التقدم المدى اللازم .

وان دور شعب فلسطين ، فى معركة استرداد فلسطين ، بمقدار ما يجب أن يستوحى هذا المنطق فيتحدد أولا بأنه الاسهام فى قيام هذا الطوق ، يتحول مع قيامه فيصبح دورا يرتكز أهله الى أرضه ، ويستندون الى القوة العربية الذاتية .. قادرا على ان يباشر به شعب فلسطين تحت أعلامها معركة تمزيق دولة العدوان وقاعدة الغدر والاستعمار .. تمهيدا لتصفيتها بسلاح طوق القوة العربية الذاتية المحكم حولها .

وان الامل بالنصر عن غير هذا الطريق ، والتطلع للعودة بغير الانطلاق الواعى عليه .. ثم الضياع فى الحوار والنقاش والجدل الذى يجهل حقيقة المعركة اليوم وابعادها او يتجاهلها او الذى ينسي عبر القضية فى مراحلها وتاريخها ومأساتها او يتناساها .. انما هى أمل وتطلع وضياع عن طريق العودة الى فلسطين واستعادتها .

واذا كان السد العالى .. كبناة وكبناء قد جاء بالثورة يقيم للقوة العربية الذاتية حصنا جبارا من حصونها يكون مع قلاع الصناعة التى قامت قبله ، ومع مساحات الزراعة واحجام الصناعة التى ستقوم بمائه وكهربائه بعده ، العمود الفقرى للقوة العربية الذاتية التى لا بد منها .. لاسترداد فلسطين .

فان بناء السد العالى أيضا .. كمعركة وكطريق لاحراز النصر هو بجميع العبر والدروس التى أوضحتها وكشفتها تلك المعركة ، وهذا

الطريق يجب أن يوضح الرؤية أمام الانسان العربى الثائر ، والفلسطينى بشكل خاص ، وضوحا يحدد معالم الطريق فيستقر بوضوحها السير المطمئن عليها .

واذا كان النصر باتمام المرحلة الاولى من بناء السد وتحويل مجرى النيل والاحتفال بهذا النصر القومى العربى الثورى قد جاء فى ١٥ مايو ليعلن أن الثورة العربية تؤكد فى ١٥ مايو سنة ١٩٦٤ قلب المعانى والدلالات والاحتمالات التى انفتحت فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ لتباشر التحدى الايجابى الناجح للآمال التى علقها التحالف الاستعمارى الصهيونى الرجعى على هذا اليوم ، فان هذا يجب أن يفتح مرحلة جديدة فى السير على الطريق .. طريق العائدين الى فلسطين .

ان ما وصلت اليه قضية فلسطين بالمأساة المهزلة فى سنة ١٩٤٨ انما كان ممكنا فى الاساس بسبب حقائق الواقع العربى حين ذاك ، فكان الثمرة المرة للأوضاع العربية ، وما كانت تعانيه امتنا فى تلك المرحلة من سيطرة الاستعمار والرجعية وتحكم الاستغلال ، ومن تجزئة وتخلف ..

وان التغيير الجذرى الذى ينسف القاعدة الغازية المعتدية التى اقامها التحالف والاستعمار الصهيونى الرجعى فى أرضنا المقدسة ، ودعمتها باستمرار وفى جميع المجالات المادية والمعنوية لا يتحقق الا الى المدى الذى يتحقق ويستقر به التغير الجذرى فى تلك الاوضاع العربية التى قامت المأساة فى ظلها واخرجت المهزلة بأيدى الممثلين من حكامها وطبقاتها الحاكمة المأجورة .

واذا كان الاستعمار والاستغلال ، والتجزئة والتخلف ، هى العوامل — فى الحياة العربية — التى نسج منها التحالف الاستعمارى الصهيونى الرجعى خيوط المأساة وصنع منها الواقع الذى تجسمت فيه :

فلا بد بمنطق التاريخ والتجربة .. ان تحقق جماهير الأمة العربية بالثورة المدى اللازم فى طريق ازالة تلك العوامل ، تحررا ووحدة واشتراكية وتقدما .. لتصبح معركة فلسطين بضمان النصر محققة .

واذا كانت التجربة قد اثبتت أن الثورة هى سبيل الأمة العربية فى الانتقال مما هو قائم فيها بالفعل الى ما يجب ان يقوم بالأمل .

فان هذه التجربة تقول أيضا ... بأن الأمل باسترداد ارض الوطن السليب هو جزء من الأمل العربى الذى يتحقق بالثورة العربية .

واذا كان هذا ، يضع مسالة فلسطين فى مستقبلها ومصيرها .. فى مكانها الحقيقى .. من القضية العربية الثورية فى وحدتها وكليتها ، بل يكاد يضع هذه المسألة فى مكان العمود الفقرى من القضية ، وفى مكان المحك والمقياس لمدى ما يتحقق للأمة العربية .. بالثورة .. من انتصارات قومية .

واذا كان هذا المنطق يربط معركة فلسطين واستردادها ، أو يعلقهما — ان شئت — بالنضال العربى الثورى الشامل ، ويقوى الثورة العربية الاصيلة .

فان هذا ليس منطق الذى يهمل القضية ويؤجل المعركة أو يتجنبها ، بمقدار ما هو منطق الذى يدرك حقيقة أبعاد المعركة وشروط احراز النصر فيها ، وهو ليس بمنطق الذى لا يعى أثر الزمن وسياق الزمن «فى القضية والمعركة » بمقدار ما هو منطق الذى يدرك أن لابد من اعادة صنع الحياة العربية بالثورة الى الحد الذى تملك به قواها القومية الثورية الاصيلة خيوط قدرها ، لتمتلك مقومات النصر فى معركة ، هى معركة حاسمة لابد لهذا الجيل العربى أن يخوضها وأن ينتصر فيها ليكون بحق على موعد مع القدر .

والثورة العربية الشاملة .

التى انطلقت منذ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ طاقات عربية ثورية تصارع الواقع الفاسد الذى صنع المأساة ، وأخرج المهزلة وتغالب القوى والمصالح والعوامل التى يقوم عليها ذلك الواقع .. تمكنت فى خلال السنوات التى انقضت منذ ذلك التاريخ .

أن تعمل يد « الهدم » من أجل البناء فى كثير من دعامات هذا الواقع فى جميع أجزاء الوطن العربى بلا حدود .

وأن تعمل يد « البناء » المادى والمعنوى حيث تمكنت « بالهدم » أن تسقط ديكتاتورية التحالف الاستعمارى الصهيونى الرجعى فى بعض أجزاء الوطن كى تتسلم باسم الشعب والهدف .. واسترداد فلسطين ، السلطة والمسئولية فى هذه الاجزاء .

واليوم .. فى ١٥ مايو سنة ١٩٦٤ واعلام النصر فى معركة السد تخفق عالية فوق السد العالى .. تستمع الى انشودة النصر التى تتوج ملحمة النضال والكفاح من أجل احرازه ... وكأنها تحدد لنا « الخطوات » التى يكتب التاريخ علينا أن نمشيها فى سيرنا الى مروج

حيفا وربا القدس ، ورمال النقب وجبال دير ياسين ... وتقول : اننا الى تلك المروج والربا وهاتيك الرمال والجبال لا ننطلق من الصفر ولا من النقطة التى كنا فيها فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ .. فنحن على الدرب قد سرنا .

ان القوى التى وقفت أمام بناء السد وهى الاستعمار والصهيونية والرجعية ، لا تزال هى القوى التى نواجهها حلفا موحدا فى معـــــركة استرداد فلسطين .. المعركة الاوسع فى نطاقها والاعمق فى نتائجهـــا وآثارها .

ولابد .. من اجل النصر فى المعركة ، أن ننتصر على هذه القوى ، والسد العالى يعلمنا كيف ننتصر .

ولابد من أجل استرداد الوطن أن ننتزع من قبضة التحالف الاستعمارى الصهيونى الرجعى ... « الاسلحة » التى هى حتى اليوم بيده قواعد وبترولا واقليمية وانفصالية ورجعية .. ندوس بعضها بالاقدام ونحوّل البعض الآخر الى اسلحة بيد هذه الأمة تشهرها مع القوة الذاتية العسكرية من أجل انتصار حقنا فى أرضنا .

ان السد العالى بكل آثاره على الحياة العربية يقربنا من فلسطين خطوات .. وان استلهام منطقه الثورى الجبار سيحث خطانا ونحن باسم الحق نسير على طريق استعادتها والعودة اليها .

ان قضية فلسطين التى تتميز عن كل قضية اخرى .. بأنها فى طبيعتها وفيما وصلت اليه .. ترفض الدجل ، وتحطم المدجلين ، وتحـــدد الطريق وتنبذ المنحرفين وتطلب الجد فتسخر من العابثين .. هى اليوم .. غير ما كانت عليه بالامس .

وان « السد العالى » الذى قام برغم أنف اسرائيل تحميه الثورة العربية بالقوة والعلم ، من احتمالات عدوان اسرائيل ، ليؤكد أننا اصبحنا ندق ابواب مرحلة لن تجد بها اسرائيل من يحميها من زحف الثورة العربية وقوتها من البناة والبناء .. وفى طليعتهم شعب فلسطين .

الفصل الثامن

نحو القاهرة

فى فيافى مناجم الذهب ، وعلى الشواطىء الملازوردية !

لئن كان الانسان يتمنى أحيانا ومن أعماق قلبه ، أن يقف سير الزمن تعبيرا من هذا الانسان عن رغبة ، تملك عليه كيانه كله ، فى أن يعيش تجربة انسانية عميقة ورائعة يود لو وقف به الزمن عندها وفيها ، فاننى قد تمنيت هذه الامنية ، ونحن فى القمة ، بين البناة والبناء فى أسوان ، ونور العمل يتعاون مع نور الكهربا واشعة النجوم على تبديد ظلمة الليل ، وظلم التخلف .

ولكن الانسان اذا كان قادرا على ان يسابق الزمن فيسبقه ، تفوقا بعمله المبدع على ما خطط لنفسه ، وقدر من عمل فى فترة محددة من الزمن ، كما فعل البناة فى بناء السد العالى ، فان الانسان على وقف الزمن غير قادر .

كنت اتحدث بهذا المعنى الى نفسي ، وقد جلست فى شرفة الغرفة بالمدينة السياحية الجديدة « مدينة النيل فى أسوان » وكان موعد الرحيل للعودة الى القاهرة قد حل ، ولم يكن أمامنا من سبيل ، لاطالة البقاء .

لم يكن سهلا أن انام فى تلك الليلة .. فاذا كان المسير بضع ساعات فى الجبل ، هو فى الظروف العادية عامل طبيعى يدفع بنا الى احضان الكرى ، فان الساعات فى الجبل الذى تعيد صنعه يد الانسان العربى الجديد ، كانت مليئة بعوامل الالهام الروحى ، ومعانى الايقاظ العقلى ، التى تدفع الانسان الى احضان التأمل والتفكير .. والى اليقظة الروحية .

ومن الشرفة ، كنت أطل ، مع بشائر ميلاد الفجر الجديد ، لأشهد اجمل لوحة ، يمكن لفنان ان يصور بها منظرا طبيعيا ، فهذا النيل يبدو لك من نافذة الغرفة القائمة على التل الذى بنيت عليه « مدينة النيل

السياحية » ، ينساب فى هدوء حالم ، تمزق مجراه مجموعات متفاوتة الحجوم من الجزر ، تتردد بين صخرة وجزيرة يقوم عليها فندق جديد ابيض ، هو فندق آمون ، وعلى وجه الماء فى الانهار والبحيرات التى يتمزق اليها مجرى النيل فى هذه البقعة ، اخذت اشعة الفجر المتسلل تنعكس لترسم صورا فيها من قوة الرمزية ، مايتيح لخيالك أن ترى فيها ما يشاء لك الخيال ، وعلى أوراق أنواع الاشجار ، الصغيرة الطرية العائمة فوق سطح الماء ، والكبيرة الضخمة المرتفعة فى الجزر ، فروعها تتطلع نحو السماء ، كانت تنعكس اشعة الفجر ايضا لتتكون من اشعة النور هابطة وصاعدة سيمفونية بصرية ، تزداد الحانها قوة كلما قرب مع الشروق صعود الشمس .

كنا قد أعددنا حقائب السفر ، وكان لابد أن انتزع نفسي لأوقظ افراد الأسرة ، فقد كانت خطتنا أن ننطلق مبكرين من الفجر ، كى نمر عبر الصحراء فى حنانه .

وبقلب مفعم بالأمل ، عامر بالايمان ، وهما الأمل الذى تهدهده ، والايمان الذى تعمقه منجزات الثورة العربية فى النفس العربية ، انطلقت بنا السيارة نحو القاهرة متبعين الطريق الصحراوى .

من ادفو ، المدينة التى تقع على بعد مائة وعشرة كيلو مترات شمال أسوان على الطريق الى القاهرة ينطلق الطريق الصحراوى الذى تتجه فيه شرقا مسافة ٢٤٠ كم ، فاذا بك فجأة تطل على مشهد من اروع المشاهد الطبيعية ، واللوحات الفنية الملونة . على البحر الاحمر فى « مرسي علم » .

واذا كنا قد قطعنا المسافة ما بين أسوان وادفو مارين بكوم امبو على منتصف الطريق ، فى ساعات النهار المبكرة الاولى ، أو ساعات الليل الاخيرة ان شئت ، فقد كانت حركة الحياة التى لم تنم ، تواكبنا يمينا ويسارا ، فى البر ، وفى النيل ، بالقطارات وبالناقلات ، والصنادل ، يحمل المقبل منها ، المواد والعدد اللازمة للسد العالى وللحياة ، التى أصبحت تدب فى أسوان ، والمصانع التى قامت منذ الثورة فى هذه المنطقة وأهمها مصانع « كيما » ، والبحر منها يحمل السماد عونا للمزارع ، والسكر من مصنعه فى كوم امبو غذاء للانسان ، وتراب الحديد مادة لمصانع الصلب والحديد فى حلوان .

واذا بلغنا ادفو ، فانعطفنا شرقا بضع مئات من الامتار ، واجهنا حاجز المرور فلما رفعه جندى سلاح الحدود ، اذن لنا بالانطلاق متمنيا لنا التوفيق،

اصبحنا نسير على صدر الصحراء فى منبسط كالمجرى تقوم من حوله على ابعاد تتسع وتضيق سلاسل من الجبال ، تكون الى يمينك وعلى يسارك احيانا ، وتدور بك الطريق ، واذا بالجبال كلها منك على اليمين حينا ، وعلى اليسار حينا آخر .

واذا كان لشروق الشمس سحر يحمله معه حينما يحل الشروق ، فان له فى الصحراء سحرا يلونه سحرها ، فليس سهلا ان أصف المتعة التى تحققت لنا بمشاهدة هذا الشروق ، وعلى الاخص عند ما كنت أرى الشروق ينعكس فى أعين الاطفال الذين اصبحوا معه ، فى نشاط الطفولة المستفيقة ، يعبثون .

وبافتقاد الحياة البشرية ومظاهرها عبر الصحراء ، كان موضوع تفكيرنا وبحثنا عبارة « نبنى بلدنا » ، العبارة التى اصبحت كأنها اللازمة ، فى انشودة الحياة ، التى كان ينشدها البناة الذين عرفناهم فى اسوان ، وعلى طول الطريق ، من القاهرة الى اسوان ، كما ينطق بها ايضا مع البناة ، البناء الذى يقوم حقيقة وفعلا ، ميلادا جديدا هنا وهناك من أرض الوادى ، أو نموا لما كان قد ولد خلال سنوات البناء الثورى المجيد .

ان كل عربى يستمع الى عبد الناصر عند ما يتحدث ، وكل عربى واع يدرك انه وهو يستمع الى القائد ، انما يستمع الى صوت الثورة والجماهير العربية ويخاطب « جمال عبد الناصر » جماهير شعبنا بلغة تنفذ الى عقولهم وضمائرهم بغير تعقيد .

على اننى أؤكد أن عبارة « نبنى بلدنا » على وضوحها الذى تحسه وانت تستمع اليها تتردد فى خطابات الرئيس وأحاديثه ، هى عبارة تأخذ فى الذهن ابعادها الحية والحقيقية ، وتبلغ بالتصور معانيها الجماهيرية والثورية ، عند ما تسمع هذه العبارة تصدر من قلوب الفلاحين والعاملين الذين شهدناهم فى السد العالى وعلى الطريق اليه ، يعلنون لك « اننا بالثورة ومع عبد الناصر .. نبنى بلدنا » .

ان عبارة « نبنى بلدنا » تكاد تكون المفتاح الذى امسكت به جماهير هذا الشعب ، والسلاح الذى اشهرته قواه العاملة فى اكبر عملية تحول وتقدم تحققت لأية أمة ، حتى بالثورة فى المدة التى تحققت لشعبنا العربى فى مصر ، منذ ثورة ٢٣ يوليو وقيادة عبد الناصر .

أن عبارة « نبنى بلدنا » التى تنطلق من شفاه الفلاحين والعاملين

وسمعناها فى موقع السد العالى ، وعلى طول طريقنا من القاهرة اليه . تعبر فى أعماق هذه الجماهير عن حقائق واضحة فى أعماقها دافعــــة لارادتها ، مفجرة لطاقاتها .

ان هذه الحقائق تتركز حتما وحسما فيما يلى :

اولا : فى أن هذه القوى العاملة تشعر انها بالتحرر من الاستعمار والاستغلال قد استعادت ملكية البلاد ، فلم تعد للمســـتعمرين وللحكام الدخلاء وللاقطاعيين والراسماليين المستغلين ، وانما أصبحت لنا .. بلدنا نحن الشعب .

وثانيا : ان هذا الشعور « بالملكية » الشعبية العامة للبلد قــد فجرت طاقات العمل والبناء تفجيرا يتميز به العمل المبدع عن عمل السخرة ، ويمتاز به عمل الذى يملك بلده كواحد من قوى الشعب العاملة فيه ، عن عمل الذى يشعر بانه لا يملك من بلده شيئا ولا يملك فيه أمرا .

وثالثا : ان هذا الشعور الذى هو مستوى من مستويات الوعى التحررى الاشتراكى يقوم اليوم بالثورة عنصرا اساسيا من عناصـــر التكوين العقلى والنفسي للفلاحين والعاملين .

رابعا : ان هذا الشعور الذى يعيشه الفلاحون والعاملون حقيقة مادية تلمسها فى الجمهورية العربية المتحدة ، هو شعور لاينحصر بالامكان فى نطاقها ، والكثيرون ممن تحدثنا اليهم يرى ويدرك أن « بلدنا » هى الوطن العربى كله ، لا بد أن نبنيه ، وانه من اجـــل بنائه ، كما يبنى الجمهورية العربية المتحدة وفى اطار الوحدة معها ، لا بد أن نزيل المصالح والقوى والرواسب ، الاستعمارية والاستغلالية ، التى تحول دوننا ودون بناء بلدنا الكبير .

خامسا : ان الشعور بالخلق والتحقيق والتقدم ، التى ينطــوى عليها « بناء البلد » هو عامل — بطبيعة الانسان — مع النجاح ينمو ، وبارتفاع البناء يكبر .

وان ادراك هذه الحقائق هو الذى يمكن شعبنا العربى فى مصر اليوم ، من أن يعمـــر بالثورة الصحارى ، وأن يلبس سطح الارض فيهـــا السندس الاخضر كما فعل فى الصـــحارى التى تمر بهـــا القـــاهرة والاسكندرية .

وان الذين يحاولون ان يشككوا وحدة الأمة العربية ووحدة وطنها ،

مستندين الى وجود صحارى تفصل بعض اجزاء هذا الوطن عن البعض الآخر ، قوم ينكرون الماضي وينكرون الحاضر .

ان الماضي يقول : ان كثيرا من هذه الصحارى ــ كبادية الشام أو سيناء أو صحراء ليبيا مثلا ــ كانت تعج بالحياة والتقدم والمدنية التى تقوم تدمر والبيداء وغيرها ادلة واقعة عليها .

وانك لتشهد هذا الماضي أيضا فى « المناجم » القديمة ــ مناجم الذهب والنحاس والحديد القديمة القائمة فى اكثر من اجزاء الوطن التى كادت بالتخلف أن تكون فى عداد الصحارى .

وتشهد مناجم انتاج الذهب القديمة فى مناطقه الجبلية الجرداء التى تبلغها اذا قطعت اكثر من نصف المسافة عبر الصحراء من ادفو الى البحر الاحمر ، وهى تقوم فى قلب هذه الجبال على أبعاد لاتتعدى فى اكثر الاحيان بضعة كيلومترات عن الطريق المعبد الذى يشق الصحراء لاهثا وهو يسرع نحو البحر الاحمر .

والعناية المخططة ، بالتنقيب عن الثروات المعدنية فى الجمهورية العربية المتحدة ، تصيب هذه المنطقة اليوم ، وتتجه نحوها .

وأما الحاضر فيقول : ان القوى العربية العاملة ، بالتقدم الذى تضعه بالثورة ، قادرة على أن تقيم فى الكثير من الصحارى العربية معالم الحياة بالزراعة احيانا ، وبالتعدين أخرى .. واخيرا وليس آخرا بالبترول .

وبهذه الافكار .. عبر الصحراء ، وبالتوقف عن المسير قليلا بين الحين والآخر قطعنا الطريق الصحراوى .. لنشرف ، مع الظهيرة وفجاة ، على المشهد الرائع واللوحة الفنية التى اجادت الطبيعة تلوينها .. على البحر الاحمر عند نقطة « مرسي علم » التى تقع على مسافة ٧٠٠ كيلو متر تقريبا جنوبى السويس .

ولن اكون أمينة ومنصفة ، اذا سرت بك من « مرسي علم » مع شواطىء البحر الاحمر متجهة شمالا فى طريق العودة الى السويس فالقاهرة .. الا اذا حدثتك عن فتى واخيه الصغير التقينا بهم عند نقطة تبعد حوالى ٧٠ كيلو مترا عن « مرسي علم » لأنها تقع من الطريق الصحراوى اليها على نقطة تعادل ثلثيه تقريبا .

ففى هذه النقطة ، شهدنا على البعد والى اليمين خيمة ، ظهر لنا من قريب انها تقوم بين بعض معدات اصلاح الطرق ، فالطريق

الصحراوى من ادفو الى مرسي علم .. نصفه الاول معبد تعبيدا جيدا من الطراز الاول ، ونصفه الباقى لا بأس به ، ولكنه « يجرى فيه الاصلاح ».

واذ وقفنا ، لنتزود ببعض الماء للسيارة ، ولنسأل عن وسيلة نصب بوساطتها البنزين فيها ظهر لنا أنه ليس هناك سوى الفتى محمد يحرس المعدات ، ومعه اخوه الصغير ، وهما كما قالا لنا من بعض « البدو » المقيمين فى تلك المنطقة .

طلبنا من محمد ماتحتاج اليه ، وكان جوابه قاطعا .. « كل شيء موجود ، ولكن تشربون أولا الشاى فليس عندنا قهوة » .

ولقد حاولنا ان نقنع محمد باعفائنا من الشاى ، فنحن على مسافة غير قصيرة من « القصير » التى نريد أن نبلغها قبل الغروب ، ولكن المحاولة ذهبت عبثا .. ولم يتردد محمد فى أن يخاطبنا قائلا .. « اننا عرب ، وهذا عندنا عيب » فأفحمنا صديقنا هذا ، واعتذرنا له ، وذهب ليعد الشاى فى الخيمة .

وعند ما عاد محمد .. كان يحمل « ابريق الشاى » ومعه كأس واحدة ، حافتها مكسورة .. وقال بثقة الانسان الكريم فى نفسه .. والله ما عندنا الا هذه الكأس ، وحافتها كسرت اليوم .. ولكن لا بأس ، المهم أن نكرمكم فأنتم ضيوفنا .

وشربنا شاى الكرم والكرامة .. من كأس حرفها مكسور .. تقدمها يد عربية بنفس عربية سليمة .. واصيلة ، ثم زودنا محمد بالماء وساعدنا فى صب البنزين ، ولست بحاجة أن أضيف أن محمدا رفض كل محاولة منا أن نقدم له هدية مادية صغيرة ، وكان فرحا هو وأخوه عندما قدم لهما ولدنا الصغير جمال عبد الناصر ... صورة من الصور التى كنا قد التقطناها فى موقع السد العالى ، وودعنا محمدا ، ابن البادية بعد لقاء ، اذا كان قصيرا بمقياس الزمن ، فقد كان عميقا بمقياس العروبة والانسان !

كنا ، كما تنطق أرقام الكيلو مترات ، التى تقوم على جانب الطريق تساعد الانسان على حساب المكان مع الزمان .. قد اقتربنا من « مرسي علم » .. القرية التى تقوم فى نقطة على شاطىء البحر الاحمر تقع على بعد ١٥٠ كيلومتر تقريبا من خط الحدود الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة .

وكانت الطريق قد أصبحت سلسلة من المنحنيات التى تدور يمينا

ويسارا حول تلال تحجب الرؤية البعيدة .. واخذت العب مع الاطفال لعبة التسابق من يكون فيهم أول مبشر بظهور البحر ، وخصصت جائزة للذى يحدد المنحنى الذى سنطل بعده مباشرة على شواطىء البحر الاحمر ، وتحدانى « عبد الله » ان اشترك فى اللعبة مقابل أن يتحمل هو دفع الجائزة ، ولقد خسرت اللعبة .. وكسبها توءمان .. نضال وسهيل .

وفجاة .. وشمس الضحى تحاول أن تمضي الى كبد السماء .. بدا امامنا المشهد البهيج الرائع. وارتسمت امام اعيننا مثيرة غنية اللوحة الملهمة ، تمتد مع مابدا من الافق ، بعرضه يمينا ويسارا ، وتمضي بعمق من خط اليابسة الى الافق غير المحدود ، ثم تزداد – باقترابنا البطىء جدا منها – سعة فى الآفاق والمساحة ودقة فى التفاصيل التى تصنعها الطبيعة من وحدة تفاعل الجبل والماء والسماء.. والبحر ، مع خيوط النور الهابطة ، والمنعكسة .

وكان الذى بدا امامنا وارتسم امام اعيننا هو لوحة رحبة من «الجمال الازرق » اطارها فى الافق زرقة ماء البحر التى تكاد تكون فى لون الكحل ، واطارها فى الجهة المقابلة خيط من الرمال البيضاء والصفراء، وبين الاطارين اللذين يسير احدهما بالاقتراب مبتعدا ليتسع بابتعاده الافق ، والآخر الذى يتحرك بالاقتراب ليضيق بحركته شريط الاطار الرملى حتى يكاد يزول ؛ راينا لحنا ثريا ينبعث من سطح مياه البحر الاحمر ، جميع انغامه درجات من الزرقة تتفاوت بين السماوى الخفيف والزرقة الداكنة تتخللهما زرقة ممزوجة بخضرة الربيع أو بلون الشفق .

وكانت ساعة لاتنسي تلك التى قضيناها فى استراحة تقوم يتيمة على راس تل صغير تشرف منها على هذه اللوحة ، وانت تغرق فى المشهد العينين ، وتسمع من الالوان فى الطبيعة لحنا يطرب منك الروح .

وعلى طول الطريق من « مرسي علم » الى السويس تسير حوالى ٧٠٠ ك م على ابعاد متفاوتة من شاطىء البحر الاحمر ، ومع الطريق الطويل الرائع يتغير لحن اللون الازرق بتقدم النهار نحو الغروب، وبتغير التضاريس الطبيعية التى صنعت لك سلسلة جبال البحر الاحمر وكأنها وهى على يسارك .. قافلة من الابل تمر بك متجهة بسرعة الى الجنوب ، ثم كأنها مع السماء وعلى البعد غيلان رابضة تنتظر فى صمت عرائس البحر وتمنى النفس بصيدها ، لقد كان عدد درجات اللون الازرق

الذى أحصيناه فى أكثر من مكان على هذا الطريق يربو على ١٨ لونا أحيانا ، ولست أعرف أن لهذه المشاهد مثيلا فى أى مكان آخر من العالم !!

ولست أستهدف وصف أيام ثلاثة تضيناها فى محافظة البحر الاحمر مع أهلها وبعض المسئولين فيها .. فى القصير ، وفى الغردقة ، ورأس غارب ، فاننى بالايجاز قد أظلمها ، وأقتصر عن الوفاء بالشكر لكل من قابلناه من أهلها ومن المسئولين فيها .

ويكفى ان اقول ان هذه المنطقة التى كانت منطقة « حدود مقفلة » أصبحت اليوم وقد فتحت ابوابها تسير فى طريق التقدم والتطور بنظام الحكم المحلى ، فى خطوات هائلة وجبارة لتصبح منطقة سياحية عالمية، فالطبيعة قد أعدتها لذلك ، وجعلتها منطقة تعدين ومناجم ، وأودعتها كثيرا من ثرواتها المعدنية والبترولية فى ارضها وشواطئها أيضا .. مضافا الى ذلك ما يمكن أن تحققه كمصدر للثروة السمكية ، والاحياء المائية .

فالتقدم بالعمران ، أصبح يشق طريقه صنعا للحياة فى هذه المحافظة بسرعة وثبات ، حتى انك لتشهد الى جانب « المدينة القديمة » فى أكثر مدنها الصغيرة القائمة على شاطىء البحر الاحمر .. شقيقة لها جديدة . تقوم الى جانبها وتشاركها اسمها .

ولعل « الغردقة » مركز هذه المحافظة هى المدينة التى تلمس فيها أعمال التقدم بالعمران سريعة النمو ، حديثة البنايات التى تقوم كمساكن وفنادق بعضها كالفندق « الدائرى » الممتد الى قلب البحر ، آية من آيات الفن المعمارى .

وفى الغردقة ، شهدنا مركز بحوث الاحياء المائية ومتحفه ، وكانت فرصة ، أن نرى كلنا قاع البحر الاحمر بشعابه المرجانية واسماكه الملونة تتيه بين هذه الشعاب فى القارب الزجاجى ، كما كان منظرا جميلا أن نشاهد « السمكة الراقصة » تدور فى حوض الماء الصغير كأنها فراشة « تؤدى رقصة فالس برداء ارجوانى » .

أما متحف الغردقة المائى ، فانه عامر بأنواع لا حصر لها من الاسماك ما بين الحيتان الهائلة فى حجمها الى الاسماك المتناهية فى الصغر ، ومن عروس البحر ، التى شهدناها للمرة الاولى حقيقة وكنا نظنها خرافة ، الى الاسماك الملونة التى لاتكاد تصدق أن الوانها من صنع الطبيعة .

انها بلا ريب تشكيلة من الالوان قادرة على أن تلهم بتفوق مصـــممى الوان الازياء النسائية مهما كانت الفصول والمناسبات التى تعد لها .

واذا كنا قد شهدنا فى هذه المحافظة ، وفى راس غارب بالذات آبار البترول ، وكانت « ماركة شل الصفراء المميزة » ترتفع فوق الكثير من منشآتها ، فلقد حل فى مكانها مؤخرا بعد التأميم « ماركة » اجمل واعدل هى أهرام الجيزة الثلاثة تتوسطها « مصر » .

وسار بنا الدرب شمالا ، بعد راس غارب لنبلغ الســخنة ، اى المصيف والمشتى الأول التابع لمحافظة السويس .

وبعبور محافظة السويس ، تكون قد ودعت محافظة البحر الاحمر . التى كانت معك طيلة الطريق الطويل .. بمراكز قوة الحدود التى تتناثر على طوله بين الخيمة والاخرى من خيام الهجانة فيها مالا يتجاوز عشرة كيلومترات .. يقدمون لك اية مساعدة ، ويقيمون الامن فى الفيافى .

وبعبور محافظة السويس .. تبلغ المحافظة التى تنقل أحـــداث التاريخ اسمها ، منذ حفر القناة ، وبعد تأميم القناة ومعركتها .. بمعان كثيرة ، وكبيرة الدلالات عميقة المنطق ، وليس أقل هذه المعانى أهمية ودلالة أن تشهد فى منطقة السويس : الموانى الحربية .. التى انطلقت تحمل قوات الجمهورية العربية المتحدة ، نحو اليمن .. دفاعا عن الثورة فيها .. بمنطق أن سلامة الثورة العربية لاتتجزأ ، فهى ثورة واحدة .

والى القاهرة توجهنا ..

بوحى السد العالى .. بأحاسيس ومشاعر وانفعالات حركتهـــا الثورة . القائمة على قاعدة صلبة من الحضـــــارة ، بالكفاح والبناء ، والبناة .

وعلى الطريق الى القاهرة .. التى شهدت فى ٢٣ يوليو « الثورة الأم فى الثورة العربية الواحدة ! » فأصبحت بهذا عرين القائد ، وعاصمة القاعدة ، كانت الاحاسيس والمشاعر والانفعالات تتركز ، واذا بها ، وقد تركزت تنتقل اليك .

« ثورة أمة من قلب أم ! » ..

فهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول :	
نداء السد	٥
الفصل الثانى :	
من القاهرة الى أسوان	١٧
الفصل الثالث :	
يابناة السد العالى	٤٣
الفصل الرابع :	
البناة ... والبناء	٥٣
الفصل الخامس :	
من بورسعيد الى أسوان	٧٣
الفصل السادس :	
أمام السد	٩٧
الفصل السابع :	
فلسطين	١١١
الفصل الثامن :	
نحو القاهرة	١٢١

الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ١١٨

الثمن ٢٥

١٩٦٤/١١/٣٠